ليلة القبض على بغداد
قيثارة ملونة

ليلة القبض على بغداد.. قيثارة ملونة

الكاتب: **سهيل محمود عمورة**

- مجموعة قصص -

الطبعة الأولى: **تشرين ثاني ٢٠٠٣**

التصميم والإخراج الفني: **مؤسسة علاء الدين للطباعة والتوزيع**

تصميم الغلاف: **جمال الأبطح**

ليلـــة القبض على بغداد

قيثارة ملوّنة

سهيل عمورة

الإهـــــداء

إلى جميع الدول المطلوبة من قبل أمريكا وإسرائيل والتي لا زال فيها متسع من البقاء...

سهيل عمورة

مقدمة

كما في الرواية، والقصة القصيرة، والقصة القصيرة جداً، ثمة قواعد وضوابط يعتمدها النقد الأدبي كإرث يجب الحفاظ عليه، مثل بحور الشعر القديم وقوافيه، ولكن الشعر الحديث، والكل يعلم أنه خرج من إسار القوننة إلى عالم حر لا يعترف إلا بجمالية الأداء، والتعريف من خلاله على غنى روح الكاتب، والموضوع الذي هو بصدده.

ما بين الرواية والقصة القصيرة التخوم الفاصلة، وكذلك ما بينهما والقصة القصيرة جداً، إلا أنه من المستحيل أن لا يكون ضمن المسافات الفاصلة أشكال وألوان تصل إلى حدود الولوج بالأشكال المحددة مسبقاً.

هنا أرى نفسي مجبراً لأن أكون ما بين الرواية والقصة القصيرة، ولم لا مادام ذلك يطلق العنان لروحي ويشغلها بكل طاقتها من أجل صناعة تحفة أدبية ذات شأن لموضوع مهم، كما مثلاً عبرت عن ذلك بشكل مختصر القصة القصيرة جداً التي لا تتجاوز مساحتها عدة أسطر قليلة، ولكنها لم تستطع لضيق الزمن والمسافة أن تكون حالة ريادية في أدب القصة.

أرجو أن أكون قد وفقت بما يخدم الغاية، والصنعة الأدبية، لكن أستميح عذراً ممن لا تروق لهم المشاهد الإباحية داخل المقطوعة الرابعة من هذه المجموعة، فكان ذلك لزاماً لتعلق الفكرة بصناعة اللوحة الأدبية، ولما هنالك من ضرورات تمليها تفاصيل الواقع على أجزاء الإحساس في القصة.

ويعلم الله كم أني أخجل من المرأة لدرجة قد لا تصدقون.. أنها تتجاوز نزار قباني في الخجل منها على صعيد الواقع.

سهيل محمود عمورة

مقاطع العزف على القيثارة

❖ **المقطوعة الأولى – للبوابة الشرقية:**

١ - ليلة القبض على بغداد.

٢ - سيمفونية قصيرة " للكوفة عزف منفرد".

٣ - الكلبة عناق.

٤ - أواه يا نهاية المطاف.

❖ **المقطوعة الثانية – للبوابة الغربية:**

١ - قصفة آس.

٢ - ماذا لو اقتربنا من.

٣ - كالعرجون القديم.

٤ - بديعة.

٥ - المهرجان.

٦ - المقر.

٧ - حنظلة حلمنا.

٨ - حكاية نعرفها.

٩ - خسئ من عاداك.

❖ **المقطوعة الثالثة – لبوابة الوعي:**

١ - السواد لا يخبئ نفسه.

٢ - أستاذ التربية.

٣ - البطل العربي في الرواية الصهيونية.

❖ **المقطوعة الرابعة – لبوابة الروح:**

١ - الطبيبة.

٢ - لكلٍ وجهة نظر.

٣ - أوبرا الحب.

٤ - حديقة واحدة.

❖ **المقطوعة الأولى – للبوابة الشرقية:**

١ - ليلة القبض على بغداد.

٢ - سيمفونية قصيرة " للكوفة عزف منفرد".

٣ - الكلبة عناق.

٤ - أواه يا نهاية المطاف.

ليلة القبض على بغداد

لم يكن هنالك جذع نخلة، ولم تتساقط يومها رطب جنية، عندما أودعت امرأة غير آثمة طفلاً وديعاً في غابة قريبة من مقاطعة جغرافية سميت بأسماء مختلفة عبر التاريخ.

وشأن الحياة مارست هذه الأم معرفتها الأولى بكل إتقان، حتى أنها كادت أن تلعق الدماء الحمراء عنه لولا أنها لم تجد ثوبها فكان ماء طهورا.

وعلى أمل غير محتمل تركت طفلها في أحضان الأم الأولى، بعد أن دثرته بقطع ممزقة من لباسها، وأرضعته من أحضان روحها كثيراً وبكت أيضاً كثيراً، ثم انسلت كطيف حزين تاركة أمره لرب العالمين.

مضت ساعات قليلة نام فيها الطفل هنيئاً تداعبه النسمات الهادئة وهي تدغدغ وجنتيه.. وأذنيه، وكذلك كانت تحاول العبث في قليل من الشعر الناعم الآتي من رحم الخطيئة الأولى.

استيقظ الطفل من نومه المشبع بالراحة، وحدقت عيناه في النجوم البعيدة، حتى أمتعه هذا المشهد ونسي حبل مشيمته الذي لم يذبل بعد، فاسترخى بغريزة الكائن وهو لا يدري ولا يعرف إلا أنه فرح بلحظة من العمر المفاجئ الذي أدرك وجوده.

تقلب يميناً ويساراً وعيناه شاخصتان للسماء، وقبل أن يبدأ في حاجاته بقليل استيقظ على فراغ المكان، وأحس بوحدة قاتلة لا يقدر قيمتها إلا من كان عاجزاً على أن يفعل شيئاً سوى الانتظار.

ولأنه لا يعرف الحباء تحركت يداه محاولاً أن يختصر الوقت المقرر، لكنه أبدى شجاعة الكائن في لحظة المحن، فحتى عندما كان ينقلب على وجهه أثناء تقلباته كان يدفع بصراخه الطاقة الكامنة من أجل حقه في الهواء.

عاد إلى وضعه السابق واستطاع بحركاته المختلفة أن يفض القماط الذي أرخته أمه قليلاً خوفاً عليه، وبينما هو في المعركة الأولى اقتربت لبوة حزينة فقدت وليدها بعد أن أصابته رصاصة صياد خاطئة، وكانت متعبة ضجرة تتمنى أن تجدها رصاصة أخرى ولو كانت من السماء.

وبرائحة الشم القوية شعرت أن قاتل عمرها يقترب كلما هي اقتربت، وربما في جوارها.. فقررت الانتقام وأخذت وضع الهجوم والاحتراس، وبدأت تتقدم من هنا إلى هناك، وكقط فطن وثبت ثم عادت للقرفصاء حتى تمكنت من العثور على ضالتها.. وإذا هو آدمي يحاول الهرب من الهرب، يضع إبهامه الصغير في فمه على أمل الحليب الذي كان قد وعد به من رحم أمه.

تقدمت إليه في هيئة المفترس، وراحت تشم رائحته فعبق في خلاياها الحية رائحة الحليب، ورغم ذلك لم تأبه لعواطف محطمة تحط على كاهلها قهراً لا يمكن التصالح عليه.

انتظرت قليلاً حتى يبدأ عشاؤها الانتقامي في أمس حزين، وليل كموج الإعصار حين وقوع الكارثة، وبينما هي مفترشة عشب الأرض وعلى جانبها الأيسر تفكر في أمر هذا الوجود، وإذا بالطفل الآدمي يقترب من حليبها ويضع فمه ليأخذ ما يحتاج إليه من وقود الحياة.

أحست اللبوة أن طفلها يأخذه من جوانح الروح الممزقة عراها، فاستمتعت كثيراً بهذا التعويض الإلهي، فأعطت.. وهي تحسن أداء هذا العطاء حتى ارتوى وليدها الماضي واستلقى على ظهره وهو يلعب بيديه الطرية ويمسك شعرها ويشده، ويضع يده أحياناً في فمها بين أنيابها ويبتسم.. ثم يكف ويتابع بطرق جديدة في اللعب، وكأنه يتعلم الحياة فيصفع أمه الجديدة على عينها.. فترمش وتبعد رأسها عنه، وهكذا حتى سرقها الوقت من هول المفاجآت واقترب موعد الضوء.

وبينما اللبوة تعد نفسها للرحيل بعد أن امتنعت نفسها عن أكل لحم هذا العدوّ الصغير وإذ بطلقات في الهواء تتهمر.. وغزال يعدو بسرعة البرق.

هبت اللبوة من رقادها ووثبت باتجاهات مختلفة لمعرفة مكان الخطر، وبعد أن حددت اتجاه الهرب، وتذكرت حليبها في جوف هذا الذي صار للتو ابناً شرعياً للحياة.

وأمسكته بأنيابها الحنونة، وراحت تعدو به والرصاص يدوي في صمت جميل، والأصوات تتعالى حتى أخذ بها الهرب إلى كهف صغير تحمي به طفلها الآخر.

وضعته أرضاً وأتت على وجه السرعة بشيء من العشب والقش، ثم أحسنت وضع نومه بأنيابها ومخالبها اللطيفة، حتى أنها استطاعت أن تزيل عنه ملابس البشر ووضعته بين بطنها ويديها الأماميتين كوسادة، وغطت لحمه الطري بكثير من فراء الدفء الحنون.

في كل يوم تذهب اللبوة وتأتي إليه مسرعة تعطيه حليبها فيكبر.. يخرج من الكهف فتأتي له مسرعة .. تحذره تؤنبه ملاطفة حتى كبر قليلاً.. وبدأت تعليمه فنون البقاء .. فتعلم العدو بسرعة..تعلم كيف يأكل الطير والأرانب، وإذا لم يفلح، وغالباً كذلك، فكانت سباقة له بكبد الضحية، وعند الشح تعلم بغريزته تسلق الأشجار.

وكان يأكل شيئاً من الثمر.. يحاول إطعام أمه.. ترفض بقوة.. وبعد إصراره تحاول المجاملة فتأكل قضمة وتمضغها وتبلعها إذا كان ينظر إليها ، وأحياناً تقذفها جانباً وتغطيها بالقليل من التراب خلسة قبل أن يعود بريق عينيه إليها.

في يوم ما ..تأخرت اللبوة وكان هذا كالصاعقة في روح لم تمارس فن الأخطاء وفن الاعتذار.

ذهب فوراً كالطلقة يعدو في أرجاء الغابة وهو يصدر أصواتاً متفق عليها ، لكن لا أحد ، لا صوت سوى الصدى الموحش خلف الأشجار الداكنة البعيدة.

برائحة الغريزة تقدم خطوات سريعة ثم وثب كأمه، وراح يعدو مثل البرق حتى وصل إلى مكان الجريمة، وإذ بالضحية تلتقط أنفاسها الأخيرة، فهمَّ إليها مشدوهاً وهو يرطن ويتلعثم دون أن يعرف ماذا يمكن .. وكيف يفعل من أجل الحياة التي آمن بها من خلال وجوده.

نظرت الأم إلى مهجة فؤادها وهي ترمش ثم تبكي.. وراح نظرها يبعد مشيرة إلى من قتلها.. وطلبت منه دون أن تتكلم .. أخذ الثأر.

صعق الابن حتى كاد أن يفقد وعيه، فنام بين يديها وهو يقبل عينيها وفمها.. حتى أغمضت.. أو هو أسبل الغطاء الأخير.

بعد هدوء النفس والروح وكذلك الجثة نهض الابن البار يجول بحركة دائرية حول أمه كالطواف ألف مرة حول معبد مقدس، وهو يفكر.. ماذا عليه.هل ..أم .. ولماذا.وكيف؟؟ حتى استيقظ على معرفة لا يدرك كنهها ، وكأن المعرفة دبت في عصارات الخلايا بشكل مضطرب.

صعد صوته بكل لغات البشر ، وصاح بها حتى انهمر العرق على جسده كشلال خرافي قديم.. فخشعت روحه وكبا على الأرض مطرقاً متجهماً في تفكير عميق عرف فيه فجأة اسمه الحقيقي.

نهض وأحضر عصاً قوية وبدأ يحفر باطن الأرض وأحياناً لجأ ليديه القويتين حتى أتم صنع البيت الأخير.. فوضع أمه بعد أن اطمأن لراحتها في وضع النوم، ولم ينسَ أن ينظف أرض القبر من حبات الحصى والحجارة.. فوضع رأسها على وسادة من القش والحشائش الطرية، وغطاها بأوراق الشجر والأغصان القوية.. ثم أسدل ستار حياتها بكميات من التراب.

هو لا يعرف الصلاة، ولا يعرف ما يقوله أو يفعله سوى أنه نام على قبر أمه وبكى حتى خيم ظلام الليل التالي.

في الصباح جاء بقليل من الماء.. كان قد وضعه في حجر مجوف، فربما اعتقد أنها قد تكون عطشى فوضعه إلى جانب القبر.

توالت الأيام وهو لا يكف على المجيء إلى هذا المكان حتى أن الطيور والحيوانات المختلفة أحست أن ثمة شيء غريب دون أن يعرف أحد ما هي الأسباب.

وفي يومٍ ما، من هذه الأيام المكدرة الباهتة كان يجلس إلى جانب بيت أمه وهو يأكل من زوادته حبة تفاح، سمع صوتاً مدوياً.. إنه صوت الرصاص ..لم يغب الأمر عليه.. استنفر.. أخذ وضعية المحارب.. بعد أن تذكر نظرات أمه.. وكذلك ولادته على أنغام صوت الموت.

أخذ سلاحه.. بدأ المعركة.. استرد شيئاً من الثأر.. قتل اثنين من الصيادين .. ثم أربعة منهم.. وهكذا حتى أنزل فيهم رعب جريمتهم.. وعاد يركض فرحاً وهو يقول: لن يكفي.. لن يكفي..وتخيل أن أمه ابتسمت له.. وقبلته.

كبرت القضية عند أصدقاء القتلة، وبدأ البحث هنا وهناك، طورد بين الأودية والجبال، كذلك في قاعات المزايدة العلنية والسرية على السعر المعقول من أجل حل الأزمة.

عدوه كان مخيفاً لهم، سبق كل الطائرات والآلات المتحركة حتى عجزوا عن الاستئثار به رغم كل الوسائل والإغراءات، لولا أنهم استخدموا أسلحة الدمار الشامل (القنابل الحرارية) التي أحرقت كل غابته وقتلت من حوله، ولولا أيضاً أنَّ ثعلباً من غابته كان قد أوقع به حين نصب له فخ الثعالب وصار ما أراد، وتم القبض عليه وسيق بالسلاسل إلى أقبية التحقيق والسؤال حتى قدِّر له أن يحاكم على الملأ، وفعلاً تم ذلك وبادره القاضي بالسؤال التالي:

من أبوك..

أمي اللبوة.

من هي اللبوة؟..

الأرض وما عليها.

المهنة..

في كل الأعمال الشريفة من أجل الكفاف والكرامة.

مكان الإقامة..

في كل مكان، إلا المكان الذي أنتم فيه.

الأبناء..

جميع الأبناء.

القاضي: أنت قاتل.

المتهم: لا .. لست بقاتل أنا مقتول.

القاضي: كيف؟

المتهم: هم قتلوني في أمي.

القاضي: فيلسوف.

المتهم: على الأقل أنا لم أقتحم شوارعكم وبيوتكم.

القاضي: أتظن أن حدودنا لها حدود.. إذا كان ذلك فأنت مخطئ لأننا أقوياء فليس لنا حدود.

المتهم: أدرك ذلك.. وأنا كنت أدافع.

القاضي: من أجل ذلك سنعاقب من يتمادى على جنودنا ومصالحنا الحيوية، لأنهم الإرهاب الحقيقي للشعب المتحضر.

المتهم: ربما غداً لا تستطيعون.

القاضي: ليس مهماً.. هكذا تمارس الحياة.. إذا كنت في مواقعنا لفعلت ذلك.

المتهم: في الماضي كنا أقوياء ولم نفعل مثلكم.

القاضي: هذا ادعاء سافر.

المتهم: إذاً لنبدأ الحوار وننهي المشكلة.

القاضي: قلت لك أنها لغة الأقوياء، فالحياة لنا.

المتهم : أنا إنسان.

القاضي: ونحن من نكون؟

المتهم: وحوش ناطقة.

القاضي: إذاً الخلاف يكبر ولا يوجد مصلحة مشتركة للاتفاق.

المتهم: يصمت ويطرق بالتفكير.

القاضي: إذا أردت نعطيك ما تريد بشرط أن تساعدنا على أمثالك.

المتهم: لن يكون ذلك، فأنا سأختم حياتي بشرف، ولن أقبل أيضاً أن توجه لي هذه الإهانة أمام الجمهور.

القاضي: إذا رفضت جئنا بغيرك، وأنت تعلم أنه ستنالك نصالنا، وقد نقوم باستخدام كل أنواع الأسلحة المتاحة في تدميرك وأتباعك على السواء، وأنت أيضاً تعلم أن هناك تجارباً سابقة كنا غير مترددين في استخدام القوة من أجلها.

المتهم: سأكون هاني بن مسعود.

القاضي: يضحك.. يضحك.. الجميع يضحك، ومنهم من يبتسم.

القاضي أيضاً: إن غباء الشرق وربما سحره بأنه غير واقعي.

المتهم: في ذلك قوة لنا.. وضعف لكم.

القاضي: تغيرت الحياة، ونحن وصلنا حتى المريخ.

المتهم: وصلناها معكم.

القاضي: كيف؟

المتهم: طبعاً من غير مركبة، وأيضاً نحن لسنا سحرة، ولكن كنا سوياً، فحضارتكم هي حضارتنا والعكس صحيح، فلولا الخطوة الأولى لما انتهت رحلة الألف ميل.

القاضي: أنتم تعيشون على أمجاد ماضية، نعيشها الآن نحن.

المتهم: ربما تعود لنا، ولكن لن ننكر فضلكم عليها.

القاضي: ومن أجل ذلك نضعك الآن أمام محكمة الأقوياء المتحدة.

المتهم: أعرف ذلك ولكن ستجد الحضارة طريقها كالماء.

القاضي: أنتم شعراء تهيمون في كل واد.

المتهم: افعلوا ما تشاؤون.

القاضي:انتهى الحوار.

محامي الدفاع: إن موكلي لا يقصد إهانة مجلسكم، أو الاعتداء على مصالحكم الحيوية، وجلّ ما يبغيه هو أن تنصفوه في أمه أسوة بغيرة من أصحاب الحظوة لديكم، وما أراد قوله أن الإنسان وحدة زمنية فلا فضل لأحد من الماضي أو الحاضر على المستقبل، إن موكلي طعن في مقتل أمه، ومرغ في تراب الحزن والإهانة، وما فعله وسيفعله لن يكون نهاية للمشكلة. كذلك لا

مجال هنا للتفاهم خصوصاً أنه لن يقبل فدية صغيرة أو كبيرة، فكل ما يريده أن تنصفوه في أمه. سادتي القضاة والمستشارين، أيها الجمهور الكريم، إن موكلي لم يقتل ولكنه قتل حقاً في أعز الأشياء لديه.. الوطن.

وكيل النيابة: إن هذا القاتل يضع القانون جانباً ويستجدي عواطف الحق والنبالة، وهو مارس عملية الاعتداء لا بل القتل ضد صيادي الأرض محاولاً أن يوهم الآخرين أنه قد دافع من أجل أمه، أو من أجل حريته، وقد نسي هو وغيره أن القانون أعلى من الجميع.

سيدي القاضي.. ساداتي المستشارين: إن هذا المتهم استخدم أيضاً سلاحاً مميزاً قد يستخدمه مرة ثانية، لا بل مرات عديدة، فأنا أطلب من سيادتكم الحكم عليه بتجريده من عصاه التي تحمل في رأسها عظماً حاداً، كذلك بتدمير كل الكهوف التي يلجأ إليها، وحرمانه من ممارسة حقه في التجول دون تصريح من قيادة حلفنا العتيد، وكذلك إجباره على توقيع صك البراءة، والاعتراف بحقنا في قتل لبوته، والعيش معنا بسلام بعد تغيير اسم أمه.

تصفيق.. أصوات تتعالى.. ضجة عكرت هيبة القانون.. مطرقة تدق.. صمت يأتي.

القاضي: إما نعم.. أو نعم.

المتهم: وما الفائدة إذا قلت الآن نعم، وغداً قال غيري لا.

القاضي: ليس شأنك.

صمت مطبق.. لا أحد حتى يسعل أو يتنحنح.

فجـأة انطلـق صـوت المـتهم كالانفجـارات النوويـة في عصـر بدائي.. ارتعدت منه أعمدة المكان.. وكاد السقف قليلاً أن يميد فوق رؤوس الحضور، وانشطر قفص المتهم إلى نصفين.. خرج منه، بينمـا الحضـور هـاموا باتجاهـات مختلفـة، كـذلك القاضـي ومساعدوه الذين استقلوا طائرة إلى وجهة غير معلومة.

بينمـا هـو ذهـب ثانيـة إلى قـبر أمـه محـاولاً إيقاظهـا مـن المـوت.. فعادت..؟!!



سيمفونية قصيرة

للكوفة عزفٌ منفرد

رائحة الشواء في شارع الكوفة الرئيسي، والأصوات المختلطة برائحة الخمرة الرافدية تتعالى من بوابات الحانات كسحابات دخان تتراقص مع قناديل السماء وقت انكسار الخاطر مع ضجيج اللهب الهابط من إله الغابة البعيدة، والواحات القريبة في عمق الرمال الهشة المتراخية تحت أقدام البعير في رحلة الصيف والشتاء.

وقف أبو النواس ولوها بعد أن طارت رائحة النشوة البابلية عندما أعاد كورش الفارسي عبيد نبوخذ نصر إلى أورشليم، فترنح حماره الأعرج قاصداً قصر بني العباس كي يطلب من المأمون صلحاً مع أخيه الأمين.



اللون الأزرق كان فاهياً أمام حدقات الرؤية، جاوب في احتضاره اللون الأبيض.. صار الماء يقترب من الهواء النقي.. فلا لون ولا طعم ولا رائحة..

تماثلت الحياة مع الأشياء القريبة منها حتى تراجعت الأيل عن مورد مائها عندما سمعت طلقاً مدوياً، حتى أن بعض الذين سمعوا بهذا الحدث امتشقوا خيط عنكبوت وارتحلوا وهماً؟؟!!

بينما كانت جنود النمل تدافع عن حياتها مجاهرة.. تحصد غلة الصيف وفقاً للمشيئة لا تقبل وقتاً للضياع.. فهذه فرصة للحياة.. اعتقدت أن لا أحداً يراها، أو أنها قررت حتى الموت طريقها إلى الصيف القادم.

فجأة، وإذا بقدم عسكرية تطلع من تحت التراب تواتر العزف على أغنية من أجل الموت، فكان الصيف القادم حلماً تراجع في الانتظار، وقررت في غبش الرؤية أنها بَنَتْ وستبني.. فكان صوتها مسموعاً إليها رغم اندحاره وبحّته الأخيرة.. فلم يستمع لها أحد.. لكنها استمرت في البحث عن الطرق المؤدية إلى بناء حياة البرد.. فتراجعت القدم الجبارة، وأيقنت أن الصغار كالكبار.. ولا فرق بين من احتوى العزف الصاخب .. ومن كان مستمعاً لأناشيد السحر في سرّ الحياة..



من هنا إلى رافعه الروح المختبئة تحت ركام الصباح قبل الضوء.. وبعده عند تكامل الشعور بالحياة وقت الضجيج.. ضمت يديها باستدارة الجسد الذي يعني الأشياء المختلفة، وبالحرقة

نفسـها تحمسـت انطباعـات الـذات مـع التوقـع، وكـان وهمـاً أزليـاً يحـرق كـل انفعـالات الـروح تحـت تـأثير العـودة إلى الماضـي، وفي العـودة هنـاك الـذكرى وهـي محببـة.. وإن لم تكـن كـذلك، أيضـاً هي شيء ما يقترب من اللجة القادمة وقت الضمير الماضي الذي بنى كوفه في أصالة الإنسان على مقدمات كتب التاريخ.

ارتحلنـا، وثبـت يـدانا قبـل القـدمين، اعتلينـا رافعـة العلـو حتـى الذرى، ونحـن في وهـم التعـايش مـع خـدر الماضـي اللـدن الـذي يمـزج قصـة الحيـاة مـع كتـاب مقـدس لـه مكانـة محترمـة في رف قـديم.. استحضر روحه بلون داكن في صباح أشرقت الحيـاة فيـه مـن كـل حدب وصوب، واعتذرت أورك الرافدية عن طريدها إبـراهيم، ومـن الأهرامات رفعت رأسها مومياء فرعون ثم عـادت إلى وضعها زاجـرة وهي تتذكر موسى نادمة.



الفريسـة الثمينـة مثـاراً لشـهية الأكـل الـدائم في جـوع لا ينتهـي شـبعه أمـام المغريـات اليوميـة، والفـن المسـتجد في الطريقـة الملائمـة لإشـباع نهـم المعـدة القويـة القـادرة علـى التلاعـب في صـنع شـتى الأصناف المناسبة من مقبلات الوجبات الاعتيادية لإحيـاء مـرح هـذا النوع المتوحش مـن الكـائنـات الـتي تعجبهـا أكـل اللحـوم البشـرية، فتعلقـت الفريسـة الحمـراء والسـوداء والخضـراء والبيضـاء مـن

كاحلها، وسقط وجه العلم أرضاً، والرأس ترنح، ولولا قليل من الخلايا العالقة لهوى في حلم مضطرب من أعلى خيال الروح الهابط على مدرجات اليباس الهش.. المتراخي من الموت لحظة الشعور بأن ذلك كان حلما.

حديثها مع نفسها قبل أن تجف الدماء من خلايا المخ كان حلماً أخيراً أن يكون ذلك هو الحلم.. قطرات من الندى ذات اللون الأحمر.. عصية على الفهم حين فرشت على الأرض أشكالاً جميلة تعكس صوراً ورسومات لا تصلح إلا أن تكون على جدار فنجان قهوة في صباح ممل، أو لوحة سريالية علقت في مضارب بني بكر..

ولأن من يقطع الرؤوس تتجلد في روحه قصة الحياة، فقد ترك الضحايا تنظر إلى موتها دون مراعاة بسيطة من أجل احترام الموت الهادئ كوديعة أبدية معروفة أنها الأخيرة.

أغمض من جاء دوره في الأقاليم الأخرى والبعيدة ألماً للرحيل.. حاول ابن السماء أن يفكر في التمرد، لكنه أدرك ليس غير السلام وسيلة لإنهاء العمر المحسوب بالندم وتبكيت الضمير.حز السكين دمه.. تمردت حركات رجليه ويديه .. نفض دمه على الآخرين..

تشردت آهاته في هواء الموسيقى الاعتيادية عندما صرخ الصرخة الأولى بالقرب من رحم أمه.. ارتفعت هامته كأشعة الشمس في كل اتجاه.. أحس أنه الكون الأبيض وكل الأشياء..

تعـرف باللحظـة هـذه علـى أحجيـة الحيـاة، وفهـم متـأخراً لغـزه الخاص، كما تعرف أخيراً على نفسه.. أنه الأقوى وهم الضعفاء؟!.

جاء دور الذي يليه.. وبطح أرضاً مثل أخيه، ومثل أسلافه رفض المـوت فقـط.. بعـد دمائـه.. حـرك رجليـه ويديـه، وارتجـف بقشـعريرة الموت.. وهمد.. بينمـا اختلفـوا عليـه بعـد ذلـك.. هـذا مـن أخـذ فخـذه.. وهذا من أخذ قلبه.. وهذا من أخذ رأسه.. وفي قارات بعيدة وصلتهم هدية من بقايا لسانه وبعض آثاره القديمـة.. لكـن البعض قـال أنـه محـرم، فعلـى الأقـل لم يتشـاهد المجـني عليـه، ولم يبسـمل القاتـل، ومنهم من قـال : طعمـه يشـبه طعـم البـترول..إلا مـن كـان يمتلـك آلـة الـذبح الجيـدة، فقـد حسـن مـن مذاقـه، وجعلـه شـهياً بعـد أن جمـع الحضـور مـن أطـراف المعمـورة كـي يشـهدوا علـى أن المجـني عليـه سعيداً وأكثر فرحاً بهدر دمه!!.

دو.. ري.. مـي.. فـا.. لا.. صـول..حسـناً بـدأ العـزف المطمـور في ضـواحي الطمـي المترسـب علـى جـانبي اللـهاث المتسـارع خوفـاً مـن الطوفـان.. مـن كـل نـوع عشـق واحـد.. حمـل سـر الحيـاة.. ومـن بعيـد بدى العشاق جميعاً كبصيص الرؤية وقت هزالة العمر عندما تبدّى للعـين نجمـة زرقـاء تراقصـت كمجموعـة نجـوم علـى علـم واحـد.. فأغمضت ثم أغمضت ثم.. ثم.. حتى تراءت الصورة فأعادت عزفهـا.. ولملمـت بقايـا العشـق في سـفينة قديمـة جاثيـة حزينـة مـن غـير مـاء..

وانتظرت على جبل الطود رحيلها بينما بقايا العشق كان كابوساً حاول أن يصل، ولكن في المكن هو تواتر العزف ناعماً صاخباً.. أطرق على الأذن أزيزاً أنثوياً وقت رحيل الميت من رحابه الضيقة.. ثم ينتهي الحداد.. تحدق الأعين للحياة مكورة باتجاه الربيع تحت تراب الشتاء.. بينما السفينة لازالت في سفح الطود تعانق الهواء من غير أشرعة.. أو ثمة ..ماء.

ولكن الحياة سوف تعود بعد سنين تعزف دو .. ري.. مي.. فا.. لا .. صول وكأن شيئاً لم يكن (وتعود الحياة).



"عام ١٩٤٨ جريمة للغرب لا تنسى.. وعام ٢٠٠٣ أيضاً"

الكلبة « عناق.. »

البيت يقع على أطراف المدينة، في مكان هادئ تمتزج فيه حياة الريف مع المدينة، يحده من الجهة الجنوبية بقايا الغوطة، والتي كانت تسمى بالغناء، قبل أن تلتهم الكتل الإسمنتية المسعورة منذ سنوات قليلة.

قال شيخ جليل في ذلك: "إن وراء هذا التخريب عدونا الرئيسي".

الأطفال لا يكلون حين عودتهم من المدرسة في تمضية وقتهم باللهو بين الأشجار وتسميتها بأسماء أوروبية، وكأنه حقد مبهم يختبئ في وعي الأجيال.

الحارات غير معبدة، وهي لا تزال محافظة على عريها بانتظار فصل الربيع كل عام، ولكن من غير خصوبة كاملة، حيث لا يخلو الأمر حينها من ظهور حشائش قليلة تنبت في بعض الزوايا أو الأماكن التي لا تطأها أقدام البشر باستمرار.

قاطنو هذا المكان يعيشون كعائلة واحدة، أو شبه ذلك، يتألمون لمصائب بعضهم وأفراحهم كذلك مشتركة، وأيضاً يخالجهم شعور الغيرة عندما ينقش الحظ حوافره في حياة أسرة أو شخص ما، وكأن هذا أو ذاك قد انفصل حينها من العائلة.

شعور غريب يدفع الناس إلى وحدتهم وتماسكهم، فهم يتبادلون مثلاً بعض الأطعمة البسيطة لتجد في الوجبة الواحدة المطروحة على الأرض نوعين أو ثلاثة أنواع.

طبعاً باستثناء المأكولات الدسمة أو الفاخرة، والتي تدخل البيت سراً لوضعها الاستثنائي والفريد، عموماً لا أحد يعلق على ذلك لو أن الأمر انكشفت حفيظته.

الأطفال هنا لا يرغبون الحذاء، فهم تأثروا كثيراً بطبيعة المكان، يركضون حفاة، وأحياناً يخلعون ملابسهم في أيام الصيف ما عدا ما يستر عوراتهم، وتنبيه دائم من الآباء (أكتب الوظيفة.. دوامك الصبح.. يكفي لعب.. أليس في رجلك...).

وبين هؤلاء جميعاً كانت تعيش كلبة شقراء بعينين شهلاوتين ترقص دائماً بذيلها معبرة عن رضاها التام لا بل عن فرحها، خصوصاً من معاملة سيدها الطفل عمر الذي لا يألوا جهداً ونشاطاً في جلب وجباتها الاعتيادية التي انتظمت مع عادة الأكل عند البشر.

تقف على قائمتيها الخلفيتين وتشم رائحة عمر كأنها تتعرف عليه في كل لحظة وهو ينادي لها (كاترين.. كاترين) وأحياناً يقذف لها بحجر فتأتي به على وجه السرعة القصوى.

بنى لها بيتهاً صغيراً من الطين والحجارة وعمل سقفه كما أسلافه القدماء من القش والطين، وبعض قطع الخشب التي استطاع قطعها بمساعدة أصدقائه من شجرة الزيتون القريبة من المكان.

الكلبة كاترين، كان يعرفها كل أطفال هذا المكان، وكذلك كانت تعرفهم حتى قطط هذا الحي لا يخالجها شعور الخوف والفزع عندما كانت الكلبة تمر من جانب قطة ما، لا بل كانت تستمر الأخيرة في أكلها بعد أن ترمق الكلبة بنظرة استحسان، وكأنها تدعوها لمشاركتها الطعام، بينما الكلبة تسير مختالة بين الحارات لتجد مكاناً مريحاً تبدأ فيه طقس حمامها، وهي تمرغ ظهرها بالتراب، وتنفضه برعشة سريعة وكأنها أحست بالقشعريرة قبل أن تلبس ثيابها في أيام كانون.

اقترب موعد الامتحانات، وعمر لا يزال يلهو بهذه الوفية المخلصة التي سرقت لبه بتفانيها وإسراعها في تلبية أوامره المختلفة، حتى ولو في أشد حالات التعب والإنهاك.

فكان لابد حي من تدخل أولياء الأمر بهذه العلاقة الفريدة والشائعة بآن، فأصر والده على الفصل بينهما مهما كلف الأمر ذلك.

وفي صباح ربيعي جميل جاء بسيارة وضع فيها الكلبة كاترين مقيدة أرجلها وعنقها، طبعاً بعد أن استفاد من معرفة الكلبة له

وتقديرها لأبوة سيدها عمر، وألقى بها بعيداً جداً عن المكان لدرجة يصعب عليها معرفة مسالك العودة لو حاولت ذلك.

في نفس هذا اليوم انكشف الأمر للسيد عمر فصال وجال في البساتين القريبة، وهو يصرخ باسمها .. ولكن دون جدوى.. حتى أعياه التعب ونام طريح البحث عن كاترين، وهو يهذي باسمها، ووالداه يستيقظ الواحد تلو الآخر للاطمئنان عن حالته النفسية والصحية، وفي اليوم الثاني تكررت عملية البحث.. فهو يذهب للامتحان من غير تحضير، ولا يدري كيف يسلم ورقة امتحانه للأستاذ المراقب عند أول فرصة معقولة لفك أسره من القاعة والبحث عن ضالته الوفية.

فكانت النتيجة أن السيد عمر رسب في امتحانه رغم معرفة الجميع أنه متقدم في دراسته، ومن الطلاب الأوائل، لكنه ليس الأول حتماً، فمشاغله كثيرة خارج الدرس.

والكلبة كاترين أيضاً وجدت ميتة ملطخة بدمائها بالقرب من المكان، وهي تحاول عبور الشارع الرئيسي المؤدي إلى بيتها الصغير، فعبور الشارع بحاجة إلى مران، أو هو من شأن أهل المدينة.

جاء بها أصدقاء عمر إلى جانب بيتها الطيني الصغير، وحفروا لها قبراً يحتويها، وعندما انتهت مراسم الدفن بطريقة تشبه حسن دفن الموتى لدى البشر، قرر عمر تغيير اسمها إذ قال: "إن الأجانب ليسو أوفياء" فعمل لها شاهدة من حجارة المكان، وكتب عليها (هنا ترقد الكلبة عناق) ١٩٤٨.

إهداء إلى مدينة الفلوجة وحي الأعظمية والكرخ والمنصور في بغداد

أواه يا نهاية المطاف

انقباض في نهايات الخلايا العصبية، لدرجة يمكن القول معها، وكأن أسراباً من النمل بدأت تتحرك في كل جزء وذرة من سطح هذا الكائن (الأستاذ) الذي يسير على الأرض.

شعور بالهلع يواكب ارتجاج العقل الجالس في صومعة من الصلد، خصوصاً أنه في الفترة الأخيرة صار يحاكي الماضي وكأنه يعيشه في حلم الحاضر وفي كل الأيام القادمة، والصباحات المشرقة بالضوء.

تباين مفارق بين هنا وهناك.. حتى أن البعض قال: "ربما حالة من الجنون" والبعض "شيئاً من استنزاف العبقرية" ومنهم من أكد أن فيه ثمة حالة من رهافة الحس بعد تجلد الإحساس واللامبالاة لدى الكثير.

أما هو فيقف شامخاً يحدث مستمعيه عن أحداث الماضي بمتعة خاصة تشبه المضاجعة، وكأنه يداعب الماضي في سرير العمر الموشى بذكريات الآخرين، بعد أن بدأت الفراش بالاهتراء، وبعد أن اعتكف الجميع في صوامع قديمة محصنة منذ اغتيال

الهامة الباسقة الوديعة، ليستحضر هؤلاء كل فنون البقاء ومتابعة الصباح والغسق، ولكن من غير عصافير، ومن غير شغب الأطفال..هؤلاء هم الذين لاذوا مع أنفسهم وتجمعوا كأجنة قطة نامت فوق بعضها البعض التماساً للطمأنينة من أجل الحياة.

هو يرى نفسه بينهم، وأحياناً يرى أنه يقف على كوكب آخر منذ أن بدأ البشر بالسير على الأقدام



صباح الخير.

صباح الخير يا أستاذ.

(يكلم نفسه.. أي خير هذا الذي نبدأ فيه مشوارنا اليوم.. عادة فيها الكذب الدائم.. فكيف يكون الخير.. ونحن..) بطريقة هادئة ألقى القبض على مجموعة من أصابع الحوار، فتعلقت بإصبعيه كِسرةً حمراء دون أن يعلم لماذا وقع اختياره على هذا اللون، وكتب على السبورة الخضراء، وهو يردد ما يكتب بصوت جهوري (يشبه صوت القائد عند بدء المعركة.. الله أكبر) درسنا اليوم "معركة ذي قار".

ثم أدار نفسه بحركة نصف دائرية مع قليل من السرعة، وتقدم خطوتين هادئتين، ومال بريق عينيه للأفق البعيد الممتد خلف

زجاج عديم اللون، قد أتيح له ذلك لموقع المدرسة على تلة صغيرة قرب مخيم اللاجئين وحارات جديدة للنازحين والوافدين والمهجرين، ومخيم الرويشد على الحدود الأردنية – العراقية.

تتحنح وهو يشبك أصابع يديه ببعضهما، كأنه يعتصر الألم الداخلي بنفسه لينشره على حبل هذا الصباح، أو كأنه بدأ صلاته للأمام بعيداً، بعد أن ضاع أثر إبراهيم وبئر زمزم، وارتضى أثر المستقبل بخشوع يشبه الدعاء، وكانت حينها سَّراءه مع الماضي، لربما مقدساً يتمتم به، أو أنه رأى في الحياة دروساً.

المهم أنه قال:

- تحدثت الروايات أنه لّما ساءت العلاقات بين كسرى ملك الفرس والنعمان ملك الحيرة – كتب كسرى إلى النعمان يأمره بالقدوم إليه، فأدرك النعمان سوء المصير، فحمل سلاحه وما قوي عليه، ثم مضى بها لبني طيء لصهر كان له فيهم وعرض عليهم أن يمنعوه، ولكنهم أبوا خوفاً من كسرى، فأخذه المسير بقبائل العرب يطلب المنعة إلى أن نزل بذي قار في بني شيبان سراً.

فلقي هاني بن مسعود بن عامر بن عمرو بن ربيعة بن ذهل بن شيبان، وكان سيداً منيعاً، فاستودعه سلاحه وأولاده.

وبعد أن قُتل النعمان على يد كسرى بطريقة بشعة (تحت أقدام الفيلة) طالب كسرى بتركة النعمان، فأخبره إياس بن قبيصة الذي عينه كسرى بديلاً عن النعمان بأنها وديعة عند بني بكر بن وائل، فأمره كسرى بضمها إليه.

فأرسل إياس بن قبيص إلى هانئ أن كسرى يأمره بضم تركة النعمان إليه (أموال وأبناء ودروع).

فامتنع هانئ بن مسعود وأبى أن يسلم ما استودعه من النعمان، وبلغ الخبر كسرى فغضب وهدد باستئصال بكر بن وائل، و جرت بين كسرى وبين بني بكر مفاوضات، وعرض كسرى عليهم اختيار إحدى خصال ثلاث:

الاستسلام لكسرى ويفعل ما يشاء.

الرحيل من الديار.

الحرب.

واجتمعت كلمة بني بكر على الحرب وعدم الاستسلام، فأرسل إليهم كسرى جيشاً من الفرس على رأسه "الهامرز التشري" المرزبان الأعظم لكسرى وكان يقود جيشاً من ألف فارس من العجم، و"جلا بزين" في ألف فارس آخرين، و"إياس بن قبيصة" العربي في كتيبتين شهباويتين، وفي كتيبة دوسر (خدم) هذا

فضلاً عن عدد آخر من الزعماء العرب الموالين لفارس، وأمر أن تكون قيادة الجيش العليا لإياس بن قبيصة العربي، كما أرسل الفرس مع جيوشهم الفيلة.

وجمع العرب صفوفهم وشعروا أنها المعركة التي ستقرر مصير العرب في المنطقة، فخاضوها ببسالة منقطعة النظير، وقد استمرت المعركة هذه بضعة أيام، وخاضها إلى جانب بني بكر وزعيمهم هانئ، بنو عجل وبنو شيبان وبنو أياد وغيرهم من القبائل.

وكان النصر في النهاية للعرب، وفي هذا النصر يقول الرسول الكريم" هذا أول يوم انتصفت العرب فيه من العجم".



صوته تهدج قبل نهاية الدرس، وكان الزبد الأبيض يرغي على أطراف الشفة السفلى، كأنه بحر الماضي هاجت أمواجه على شواطئ المنعة، أو كأنه التاريخ بدأ انكساره عند بدء الخطاب والتعلم مرتين.

يجهد النفس والروح في إحراز تقدم نفسي على مسيرة المفاوضات بين بني بكر وكسرى، ولكن لماذا؟

فالأمر مختلف.

عندها وبينما الأستاذ يخوض غمار الانتساب إلى الماضي كانت الأرض تُبشر بالحياة، واللون الأصفر جاء موعده على أرض الخصب في الشتاء، وعيدان الشجر كانت كهلة مثل عروق زرقاء على يد رجل مسن.

قال: ليس للماضي ما يحذوه غير دقات الزمن المتباعدة المنتظمة والتي تسير في المجهول بشكل مستقيم، وما نحن إلا متفرجين الآن نعبر عمراً وجيزاً، لنكون غداً على دفاتر المستقبل.. فما أسعد تلك الأجيال التي كتبت التاريخ أو ستكتبه بحروف ناصعة المجد.

نظر الأستاذ عبر النافذة فرأى الحياة... صمت ... صمت... ذهول.. وشيء من الخوف... فقط لأن الأستاذ صار يحاكي نفسه على غير عادته.

الطلاب كأنهم ناموا بفعل المغناطيس.. لا أحد يحاكي أحد.. كلهم مشغوفون بمعرفة لماذا؟؟

فجأة... تسلل صوت مذياع قريب من المدرسة يتلو على أي مستمع نشرة الأخبار باللغة العربية، وكان الوقت قبل الشمس في منتصف الطريق.. وفي منتصف أو قبل ذلك من أشهر الحزن والموت.. في شهر الشتاء الدامع.

وفي جو جنائزي يثير الرهبة، بدا الأستاذ والطلاب كأنهم يُشيّعون أحد العظماء السياسيين.. وأثناء الجلبة الصامتة تأمل الأستاذ ثانية من خلف الزجاج.. فرأى فصلاً آخر من الحياة.. غصن طري على مشيمته عاد بعد أن سكنت الريح.. وحب طلع كثيف يثير شغبه الشبقي مليئاً بالإثارة .. ورأى الناس أيضاً تتوالد وتخلق مرتين. إلى أن انتهى الحلم المضطرب وإذ هو الشتاء يصّر على برده المعتاد.. وأحد الطلاب قال بصوت يشبه الانتقام:

"أواه يا نهاية المطاف.. أواه يا أمي".

المقطوعة الثانية - للبوابة الغربية -

قصفة آس

ماذا لو اقتربنا من ؟!

كالعرجون القديم.

بديعة.

المهرجان.

المقر.

حنظلة حلمنا.

حكاية نعرفها.

خسئ من عاداك.

« قصفة آس »

" ١ "

العمر قردٌ يرقص على دف الزمن، ويرتحل كعصف منثور ليبدأ اجتماعه ثم ينتهي.. فلا شيء يبقى إلا بعض الذكريات العالقة كوهج النجوم في سماء بحر عاتم، ترعاها الأظافر الناعمة، وهي لا تدري كيف تعزف قصة الماضي.. لتصبح هي القصة نفسها بعد حين.

هل هي الحياة خضراء للأبد؟ تساءل إنسان ما يسكن في داخلي، ثم أضاف.. هل الإنسان يموت حقاً أم أنه لا يموت؟؟

قشعريرة بدأتُ أراها تسري في أنحاء المجرات، أحسست بها تحاصرني ثم تقذفني لأهوي عن غير بال، ربما كحلم هابط إلى غير قرار.

لا أدري أخيراً أي فضاء كوني قد دب أوهامه بنفسي، حتى أجدها تعلقت بجذع صنوبرة، بينما كانت الأرض تحاول أن تفلت مني وتذهب إلى شأنها حول الشمس.

نفضت عني غبار التفكير كبعير لا يجيد حك ظهره، وحاولت العودة إلى السذاجة إلى الطفولة، فتحت النافذة – الله

أكبر الله أكبر ولله الحمد.. الله أكبر كبيرا – آه.. لامناص من التفكير أنه شبح يلاحق قشرة المخ.. زفرات محتجة وحشرجات من الصدر تقيحت بكلمات غير مفهومة، ولا مقصدها أيضاً.

عاد بي الماضي إلى منذ ألف وخمسمائة عام، وصرت أنشد معه مترنماً مترنحاً كراقص لا يجيد إلا التمايل نحو اليمين ثم اليسار - توقفت في بهو الغرفة، وأغمضت جفنيّ بكل حرية، لأرى شريطاً جميلاً .. أطفالاً سعداء يتهيئون إلى فرح هذا اليوم، ورأيت نفسي صغيراً أنتعل حذائي عشية عيد الضحية في عام النكسة (١٩٦٧).

أحدهم من بعيد في أعماق أركان الروح قال: كفى .. كفى تنبهت للأمر.. الوقت ينفد.. أغلقت النافذة وهيأت نفسي للخروج خلسة قبل أن تستيقظ طفلتي وتصرّ على الذهاب معي إلى العيد كما وعدتها بالأمس، فمشيت كلص شاطر حتى وصلت إلى الباب، وأخذت افتحه بهدوء وحذر شديدين، وقبل أن أترسه ورائي كان قد أطلق صريراً خفيفاً أيقظ زوجتي، وجعلني أرتعد قليلاً، صوتها الصباحي الذي لم يبدأ مرانه على العمل بعد، تقدمت منها، وضعت سبابتي على فمي وأنا أش لها (ش.ش) وأشرت بالبنان على (العيد) ووضعت كفي إلى جانب رأسي وأحنيته قليلاً ثم ألمحت لها بيدي ورأسي أنني سأعود حالاً، لكنها أبت إلا أن

تتكلم وبصوت عالٍ: إلى المقبرة إشو بدك بها الروحة عند هالصبح - وإذ بالعيد يتحرك تحت الغطاء، وأصابع ناعمة طرية بدأت تغسل بها النوم عن عيونها، فما كان مني إلا أن ألحق نفسي وأهرب تجاه الباب وأغلقه ليصدر صريره المعتاد، وقلت في روحي ليصير ما يصير فأنا على كل حال لن أتأخر.

" ٢ "

بعد أن ظهر الخيط الأبيض من الأسود بقليل، منهم من استفاق من رقاده، ومنهم من واصل الليل بتلك اللحظة المعتلية في روح الزمن الغابر.. صور تتكرر منذ سوق عكاظ.

تلاقت الناس على الأرصفة، وعلى معابر السيارات، كلٌ يحمل في يده قصفةٌ من الآس الأخضر ويتوجهون تحت تأثير مغناطيس البحث عن مكان أداء القسم السنوي من أجل استمرار الحياة.

كنت بينهم أعدو.. أقدامي تسبقني كأنها الطريدة، وأصابع اليد آثرت أن تضاجع برودة الصباح في أيام الربيع الأولى، الوجنتين نهمتين في أن تقتات نصف الضوء الداكن..كزورق يعبر الماء صوب الأفق الأحمر ولا يبدو منه غير الملامح.

أما عيناي فربما كانتا جامدتين كالموت تقطر قليلاً من الدمع البارد الذي ينزف مجاناً بحكم البرودة، فأبيت مسحه

بالكم أو بيدي، وتركته ينساب ويقطر كنهر جفت مياهه في أعقاب صيف ما.. فصار ساقية شحيحة لأتيمم بها، وكأن الحزن هذا، هو قريبٌ أو صديقٌ بدأ أول من زارني في هذا العيد!!

توقفت قليلاً وعبطت قصفةَ الآس دون أن أدري أين أضعها، وتركت عنان نفسي مع القطيع، وصرت أنشد دون أن يسمعني أحد.. في يدي قصفة آس وأنا أمشي وأنا أمشي..

" ٣ "

بالأمس كان التصحر يغمر فيافي هذه القفار التي لا يبدأ الظل فيها حتى ينتهي، تفرق الناس مع خضرتهم الأولى، يقبعون حول وإلى جانب الأضرحة المرتبة هندسياً كترتيب منازلهم – شوارع رئيسية وفرعية!!

اللون الأبيض مع الأخضر عند قُبيل فرح الأجنة، هو الغناء الإلهي الذي يعزف فوق الحجارة المحصنة أهزوجة المرح الممتد منذ الخليقة، وكأن الإنسان يبدو معها رحيلاً دائماً وتواصلاً مع الولادة.

وبدا هذا القطيع يزور نفسه هو حين أحسن دفن موتاه منذ زمن.

تعثرت خطواتي أحياناً بين تيه الطرق الفرعية، وأنا لازلت أعبطها قصفة الآس التي تقترب من أنفي كلما تعثرت فأشم فيها رائحة الموت والحياة.

توقفت لأقرأ أسماءً غير محددة.. كانوا يضجون بالحياة مثلي – ناصية كتب عليها مواليد عام ١٩٣٦ حيفا وثانية ١٩٣٩ يافا وثالثة ١٩٤٨ القدس.. ٤٨ ..٤٨ ..٤٨ تكرر هذا التاريخ في رأسي كنداء رجع الصدى.. تجمدت برهة ووقفت مثل شارلي شابلن في سينما غير ناطقة، ثم عدت بقليل من السرعة فزعاً إلى مقبرة مجاورة للشهداء، وأنا لازلت أعتبط قصفة الآس ولا أتذكرها.

هنا اختلف الأمر كثيراً، طوقت أكاليل الزهور ناصيات الشهداء العالية قليلاً، وخيّل لي للحظة أنهم جنود في صفوف نظامية أمام مقدمة المقبرة، والتي بها شهداء القادة (الاغتيال السياسي – الموت الطبيعي والمفاجئ) المنمقة قبورهم والمحسنة الصنعة، ومنها من أحيط بأقفاص حديدية خوفاً من نقمة الجنود الأكثرية النائمين عن قرب تحت الأرض!!

دخلت في مدينة الشهداء، وبدأت القراءة أيضاً، ولكن باسم روحي التي تعلم ما عُلم.. تذكرت الإحدى والعشرين طلقة أيام خلت، عندما جاؤوا به شهيداً من بوادي الأردن وأغواره على يد السلطان – استشهد في عمّان ١٩٦٩ .في جرش ١٩٧٠.. في عجلون.. في.. - ملت قليلاً كانكسار الضوء إلى قطاع آخر أكثر حداثة في ترتيب الزمن السياسي حيث قرأت – استشهد في لبنان أثناء غارة.. أثناء اجتياح.. أثناء تصديه للفاشية - تقدمت بين آيات

القرآن الكريم التي تصدح بها آلات التسجيل، وتابعت كطالب مجد يعيد قراءة كتابه من جديد صفحةٌ.. صفحةٌ، فقرأت – استشهد أثناء قيامه بالواجب (اشتباك بين تنظيمين أو بين شقي تنظيم) تكرر ذلك بين عشرات القبور، وهكذا وبينما أعبر الطرق الفرعية لمدن الأموات كدت أضع ما بيدي (قصفة الآس) أرضاً وأعود أدراجي لأنجز ما تبقى من هذا العمر!! وإذا بصوت قرع الطبول وصوت المزامير، إنه قائد ما، أو ممثلٌ عنه يصل.. هكذا قال من بجانبي، ليأتي آخر..ثم..ثم.

نفر قليل تجمع ليرى بحكم الفضول، وامتلأ المكان بحراس الزعيم والحاشية.

سمعت عن غير قصد امرأة في خريف عمرها الأخير يبدو أن لها ابناً شهيداً سقط أثناء قيامه بالواجب - قالت: انشا الله..؟؟

سقطت قصفة الآس من يدي لأتناولها كخطف البصر، وعدت بها مسرعاً إلى البيت، وإذ أنا متهم لدى طفلتي بالكذاب، بينما اعتقدت لتوها أحمل هدية العيد، أما زوجتي قالت: إشو مجنون؟!

أما أنا قلت واجماً: سأضعها على الأحياء؟؟!!

أيام عيد الفطر ١٩٩٢

دمشق

ماذا لو اقتربنا من؟؟

غيوم متفرقة في روح الذاكرة، عكرت صفوها الأيام الجميلة أحياناً.

في كرواتيا عودة إلى الماضي، وهنا في فلسطين عودة إلى الصفر.

تعب يحرق النفس عندما لا طاقة لنا به؟ ونقبل!!

الكل ينشد، وأجسادنا ضائعة في انهدام الوكر الآتي في حلم سماء القلب.

لا حياة حميمةً بين أفاق الشراع، وضجيج المد والجزر على شواطئ حيفا.. ثم نمضي سعينا، ويعود لنا الماضي وكأن الأرض هي كل معادلات الحياة.

شهيقنا وزفيرنا لا زال يأتيه وجدان الماضي – شواطئ فجرنا لاحت من العتمة، وقاربنا يهوج به بحر العروبة من أيام ذي قار.

الفكرة الساحرة، منابع لغناء الصمت في نداء الرؤية، وفي روعة التقدير الأخير المبتذل من أجل الشيء وعلى أمل سيأتي.. ولكن ليس نقشاً على رخام القبور؟؟

جواهر مدركة متجسدة في حالات إلهية تكشف لنا عن وعود غامضة.. وخوفاً من سايكس بيكو جديد؟؟!!

لا مجـال لحـزنٍ أو فـرحٍ، أو أي شـيء آخـر إلا الصـمود رغـم العاتيـات والنسـيان، مـن أجـل فقـط أن نتواصـل، وعنـدما تـأتي الذكريات .. فرحم اللّه امرئ عرف قدر نفسه، ثم انتقم.

هو هذا المقتلع من جذوره، الذي ليس له بدٌ عن الشقاء.

هو الفلسطيني: إن لم يعمل فليس له إلا الموت!!

فـلا شـجره وراءه ولا مقثـاة بطيـخ، ولا دكـان صـغير في شـوارع حيفا، أو في زمان أثري من شوارع القدس القديمة.

اسـتنفار دائـم ويقظـة مسـتديمة، وسـؤال متكـرر بإلحـاح عـن تعب هنا ووشة هناك.

وتنبيهـات مسـتمرة عنـد كـل صـباح، وهـم يحملـون حقائـب المدرسـة.. اسمع: انتبـه إلى الأسـتاذ، لا تشـرد، إيـاك ورفـاق السـوء، فليس لك إلا الشهادة، أنا لست دايم لكم، ولن أتـرك ورائـي أرضـاً أو عمارة.

إذا فشل أحدكم سيكون مصيره مثلي - عامل يركض هنا وهناك.

هذا الأب ليس لديه سوى يديه القويتين، والطاقة الموروثة التي ينسبها إلى زيت الزيتون الأصلي.

يمتعه دائماً القول: إنـه في فلسـطين كـان يـذهب إلى المعصـرة، ويغـرق رغيـف الخبـز بحـوض الزيـت، أو أنـه في كـل صباح يشـرب

الحليب من درة البقرة الحبيبة عليه.. التي يذكرها كأمه، ويترحم عليها وعلى أمه عند كل تكرار لهذا الحديث.. أو ما يشابهه.

أدوات عمله مؤلفة من أخشاب الاحتطاب الماضي في الذاكرة، تصبح الآن شيئاً مهماً، وثروة معقولة، فلولاها يصبح عاملاً أكثر وضاعة عند من يمتلكها، فهي رائحة الخبز، وأمسيات الأعياد في أسواق لا تعرف إلا : كم من المال تبقى في الجيبة اليمنى.

تقبع هذه الأخشاب أمام الدار، تؤنس بوجودها حتى صاحب الدكان القريب، الذي يسجل على دفتره قائمة بمشتريات أم راشد وكذلك تؤنس الجارة أيضاً التي استدانت منها أم راشد ثمن فاتورة الكهرباء.

حتى أبناء أم راشد عندما يعودون من المدرسة، فهم يتذكرون خصب هذه الأخشاب والمُشلّعة عندما نرحل من هنا، ويكف الأب عن مطالبتهم ببيع الذرة بعرانيسها، أو السميد المحلى (الهيطلية).

عندما يبدأ فرحهم باللعب، والتحرر من التزامات مبكرة، ويبدأ انتظار الراعي المحبوب وهو يأتي تعباً فرحاً يحمل أكياساً فيها ما يعوض عن بستانه المحتل منذ مدة، لتبدأ الأيدي الطرية تتنافس على أحسن ما فيها من حبات نضره.. عجز الأب عن اختيارها جيداً من صديق له يعمل برأسمال بسيط جزء منه من هنا والجزء الآخر ديناً من هناك.

رغم تشابه الأيام، لكنه كان يوماً مختلفاً مثل غيره أيضاً عندما بدأ الحديث الهادئ مع أم رائد خلسة من أجل الحفاظ على نوم الصغار المتكومين من حولهما أكوام لحم آدمية، لا تعرف من هذا الوجود إلا الطعام بالدرجة الأولى.

قال أبو راشد: جاءتني ورشة جديدة كبيرة فيها مال كثير، يغطي مصاريف رمضان القادم بعد شهر، وحتى مصاريف عيد الفطر.
أجابت أم راشد - والتي أصبحت خبيرة بأمور العمل - كم المتر؟
فقال : إنه بـ.....
أجابت: رخيص، وأردفت : وما هي الورشة؟
أجاب: إنه "حاووز" ماء كبير.
قالت: ستتعلق بين السماء والأرض.
قال: طبعاً، شيئاً صرت أجيده.
قالت: لا..لا.. أخاف أن يحصل مكروه، وأين أذهب أنا بالأولاد؟ لا يا أبو راشد..لا فكر بشغلة ثانية.

قال: سنسدُّ فلان كذا، وسنشتري كذا، ونموّن السنة إنشاء اللّه الزيتون والمكدوس، وأكثر من ذلك سأشتري لك خصيصاً بدلة، وحذاء، وخاتم ذهب بدلاً عن ذاك الذي بعناه قبل سنوات.

طبعاً هو يعرف كيف يأخذ أم راشد إلى عالمه الخاص.. ليسود الصمت قليلاً، حتى تبدأ أم راشد حديثاً من نوع مختلف إذ قالت:

لا يا أبو راشد أنا لا أريد شيئاً! أريد أن نشتري لعبير بدلة مدرسة جديدة، وكذلك راشد بحاجة إلى ملابس أيضاً وهو صار "شب" ولازم "يشوف حاله بين الناس"، وتابعت...

"يا أبو راشد كمان أنت لازم تشتري شوية ملابس لأني بفرح لما أشوفك مهندز".

استطاع أبو راشد إقناع زوجه ثانية بكل تفاصيل الصباح القادم، وتبدد تعب الحياة... فناموا كخلية واحدة.

في الصباح جاء صاحب العمل "المتعهد"، وأخذ أبو راشد في سيارة خاصة ليطلعه على طبيعة العمل ويبدأ الاتفاق.

دخل أبو راشد السيارة بحركة غير مصطنعة لا لشيء؟ فقط لأنه غير معتاد عليها، فحنى ظهره كثيراً أثناء الدخول وأغلق الباب بهدوء –ولكن لم يوصد - حتى أسعفه من الأمام ومد ذراعه الناعمة واثقاً وغلقه بقسوة، طبعاً كي يؤثر على تحديد سعر المتر!!

في اليوم التالي، كانت السيارة تقف أمام الحارة، وأبو راشد يركض مسرعاً وكأنه في وقت التحضير لعرس أحد أبنائه عندما يكبر.

يحمل أخشابه ويضعها في السيارة بترتيب معقول، وأبناء الحارة وأبناؤه بدأوا مساعدته وكأنهم أيضاً في عرس التضامن مع الآباء.

حتى أن أبناؤه الذين كانوا أكثر فطنة ونشاطاً ذكرّوا أباهم ببعض أدوات العمل الصغيرة المهملة تحت الدرج، أو فوق السطح، وصاحب السيارة يتذمر للتأخير، ولكن كانت المجاملة ضرورية، والإطراء الخاوي شيئاً لابد منه من قبل أبو راشد.

صوت المحرك بدأ يعمل.. وبدأت الرحلة، وأبو راشد جلس إلى جانب قائد السيارة بعد أن حسّن قعدته، ومد يده لأبنائه بإشارة الوداع.. وكذلك لأهالي الحارة الذين اصطفوا عشوائياً هنا.. وهناك يسترقون النظر إلى أبي راشد الذي لم يسافر إلا مرةً واحدةً فقط عندما طرد من جليله الأعلى.

حيث كان الناس قد نسوا مشاق السفر.. ليتذكروها ثانية.. وكان أبو راشد معهم بنفس الروح.. فأغمض عينيه واتهم الدنيا بالأعجوبة؟!!

بعد يومين وبعد الاحتكاك، تعرّف أبو راشد على الناس على الطبيعة الجغرافية.

قال له سكان القرية وهم يشيرون برغبة في التعريف لإنسان كان يوماً وراء الحدود: هناك يهود.. وهذا التل احتل في سنة كذا.. وهناك قوات عربية.. وهناك فدائيين.

في الليل عاد إلى ماضيه بعد أن استنشق رائحة الأرض، وتيمم بها، عادت إليه الذاكرة، وعاد به الحاضر إلى اقحوانة في ربيع

الأرض .. وشجر الزيتون والبرتقال، فكان صامتاً عندما كان يجلس مع مجموعة من رجالات القرية، وهم يتحدثون عندما تطلق القذائف المضيئة، إما بهمس مقصود، أو بصوت غير آبه.
بعضهم قال: "يا رب، تكون عملية فدائية ضدّ هالكلاب".

الأضواء تتلألأ فوق التلال البعيدة.. الأزرق والأبيض، وقنديل حزين يقبع في المساء إلى جانب الحائط الترابي المجاور لغرفة يسكنها حمار يستخدم في نقل الماء، وكذلك بقرة واهنة بسبب الجفاف، تأكل الورق الموزع على أطراف المدارس، وقليلاً من التبن المُعتشب بعد فقدان الأمل بهذا الموسم.

في الصباح - وقبل الشروع بأداء الواجب، وعندما كان يسير أبو راشد مع المتعهد ورئيس البلدية قرب الشريط الشائك، ومعهم أحد عمال القرية.. فجأة قال العامل: أبو راشد انظر هؤلاء هم اليهود ألا تراهم.. إنهم يظهرون الآن تماماً.. انظر.. انظر.

أبو راشد صار هو عالماً بلا صور، وعاش غيبوبة الاحتضار من أجل العودة للحياة.

مسك حجرين، واندفع بقوة كي يواجه الرصاص داخل البندقية.. ولكن قبل أن يبدأ الرد الفعلي –عبطه المتعهد ورئيس البلدية وقالوا له سوياً وبصوت واحد: شو بدّك تخرب بيتنا!!



كالعرجون القديم

في الأيام العادية يبدو أن الزمن ليس له مكانة لائقة، فالحياة تمارس لعبتها في غفلة عن المتفرجين والولوهين في ابتكار فنون العيش على السجية.

في هذه الأيام، كانت الأرض تنوء بحملها وحتى تلك الجدران المتهدم جزء منها، وكذلك بقايا الفيء الذي ترمم ليكون ملاذاً للراحة، خصوصاً بعد عناء الأطفال الذين توزعوا يبحثون عن المعرفة في أزقة المخيم، وهم يملاؤون فراغ المكان صخباً، واحتجاجا، وضجيجاً محبباً، مع الضحكات المتعالية في هواء عربي مليء بالغبار.

كالعادة، كان يجب أن أواصل الهروب من قضايا الحياة، بمزيد من النوم، لكن هذا مستحيل، فما أن تشع الحياة بخيوطها البيضاء، وتبدأ العصافير راقصة من أجل فرحها.. حتى تبدأ أيضاً العصافير الآدمية من حولي تثير اليقظة، بزقزقات مختلفة، لكنها مزعجة، فلا أجد مناصاً من أن ألملم عظامي، وأتوجه مضطراً كي أبحث عن ما هو ضروري حتى أستيقظ في الغد القادم وبعده أيضاً، وعلى وقع براءة الحياة شرطاً أساسياً ومن أجلهم.

تقدمت في الشوارع الفرعية، يسميها الأدباء "أزقة" وما أن أطوي نفسي يميناً حتى أعود لأصححه باتجاه آخر، أو أعود مدبراً لإعادة الاتجاه مع البوصلة الداخلية في الطريق الصحيح الذي سيدفعني إلى الشارع الرئيسي، حيث تتجمع فيه نفايات الخلايا الليلية بحركة سكونية مثلت نفسها دائماً بهذه الصورة.

وجوه طبعت عليها آثار النوم كلّ ما يمكن أن تتوقعه، وربما كنت أجد نفسي في جميع هؤلاء، لكن البعض ممن تجمعوا صامتين إلى جانب أنفسهم ينتظرون حافلة، أيقظوا بداخلي ذكريات قديمة لم أشاهدها، ولكن كنت قد سمعت بها؟؟

شيء ما يمانع في هذه اللحظات، ولكن في متعة خاصة قد لا يجيد طقسها غيري، أقترب مع بعض هؤلاء، ثم أبعد، لكي أجد نفسي مع ثلة من الناس، أعرفهم ولا أعرفهم، يحرقون الصحف والمجلات في هذا الصباح البارد طلباً لبعض دفء اليدين والقدمين.

أكتفي أحياناً بتحية الصباح، وأحياناً أجد نفسي غير مضطر لها، لما في ذلك من طعن بالحقيقة فأي خير قد يكون مثلاً؟

تأتي الحافلات، يتراكض هواة التعب، كل يحاول أن يحرص على مكانه المعتاد، حتى ولو بإمكانه أن يجد ما هو أفضل.. إنها العادة.. والأمان، شعور غريب يلاحق هذه الكتل من الخلايا والدم.

كان تاريخ ذلك غير مدون، وهو غير قابع في ترقيم الأيام - مجموعة كبيرة من دفاتر الزمن (الشمسي والهجري) احتضنت نفسها وأعادت اجترار هذه الحالة، كما ولو أن التاريخ لا يقرأ إلا اللحظات العجيبة، وبالتجسيم النافر، كلوحة لا ترى إلا باللمس.

ففي أحد الصباحات المبكرة لهذه الأيام، كانت زرافات من الأقدام والأيدي تتقدم كقطيع الخراف، باتجاهات عشوائية تبحث عن سلاحها الجاثي بين ثنايا الأغطية وفراش النوم.. حيث أشيع أن ثمة خلاف في جوهر المواقف؟؟

قذائف هنا.. وهناك.. ورصاص مألوف لا يدوي إلا في أعماق الروح التي بدأت تتساءل بينما المدينة القريبة، كانت عامرة في كل أشباه الروح المتلوية من أجل إشباع ظمئها، غارقة في حاناتها، وفي مداولات أصحاب الرأي، وكذلك الاستعداد ليوم آخر تنظمه تلقائية البشر المزدحمة في كل صوب، حتى انقطاع تيار الشمس.

أما هنا، فكان النقاش يأخذ مسافة قصيرة، حيث لا داعي لجهد إضافي، وحرارة جبين عالية، ولا داعي أيضاً كي يتصبب عرق الإجهاد من أجل التوصل إلى إثبات الرغبة، فالأمر يبدو سهلاً، كما يهطل المطر تهطل الكلمات المختصرة في عزوف واضح عن التشدد، أو الانتماء؟



امتلأ الناس بأمل جديد، كل بدأ صناعة جديدة لأحلامه وأفكاره التي بدأت شحذ نفسها وصقلها، تكون بمثابة الحد الفاصل بين تثلم الروح وبعثها من جديد.

ازدحام فوق بضعة أمتار، تتوجه العيون شاخصة إلى قليل من الارتفاع، وإلا كانت هذه الحلقة عيّنة من يوم القيامة؟؟

ورقة كان ظهرها للخلف، وأمامها عرى صريح ببضع كلمات، التي جاوبت الخاطر المهزوم، المتكئ على رصيف الاحتمال.

تبدلت السماء، وتلبدت ببعض غيوم الغيث، والأرض عطشى تشققت، وانشطرت على نفسها بحكم عجاف السنين، فجاء الغيث وأول الغيث كان مهراراً.

رقصت له الحسان، والأطفال بنشيد الغيث المألوف: "ربنا .. يا ربنا.. اسقي لنا زرعنا.. إذا الكبار أذنبوا نحن الصغار شو ذنبنا يا ربنا".

تمددت الخلايا في كل اتجاهات الفرح، وزغردت بعض النسوة اللواتي عرفن بالخجل وصاح الجميع .. انتصرنا.. انتصرنا..



قبل أن تنهي الأرض عدتها، وقبل أن تنهي الأفراح عدتها، وقبل أن تمضي الغيوم ويتوقف المطر، وقبل بدء الربيع، كانت

الإعلانات الورقية ملصقة على قارعات الطرق، بعد أن تكاثرت بسرعة البرق كوحيدات الخلية وتوالدت من غير رحم دافئ.

أدارت ظهرها لعابري الطريق، وكان وجهها ملتصقاً بالجدار عن غير عادة، بينما الناس تراكضوا إلى حافلات الصباح، وكل أخذ مكانه المعتاد، وبصمت يشبه صمت جنائز الأبطال، وضع كل منهم رأسه بين ركبتيه يلملم قليلاً من الدفء، بينما راحت مخيلة كل واحد منهزم تسرح بذاك الذي كان فقيراً فأخذته أمواج المد إلى شواطئ الأمان، فاعتمل كوخاً، ثم قصراً، ثم توافد الخدم على رائحة القمامة العابقة بكل أصناف العناصر الأساسية، والعطور.

وكان أحدهم يتذكر، كيف تغيرت حركاته، وكذلك لباسه، وحتى قبره المميز بعد وفاته، والجميع أكدوا من غير مداولة مشتركة، أنه كان لازال قمراً أضاء في ظلمة الغابة، وعمل جاهداً كي ينصر الأيل.

لا بل وقّع معها اتفاقية شهيرة، حضرها ممثلون، وآخرون كانوا من أجل الشهادة.. نصت هذه الاتفاقية في أهم بنودها: تحرير الغابة..و..و.. حتى البند الأخير والذي قال: نعم للديمقراطية – لا للتفرد – ونحو نظام مالي نظيف - عاشت فلسطين.

وبعد المد ، بقيت هذه الاتفاقية لا تقرأ ، رغم أن صداها ظل مسموعاً يتباعد كرجع الأثر، لا بل كانت العتمة قد خيمت.. وغاب وجه القمر.. ليعود كالعرجون القديم.

بينما كانت العربة تسير بصوت منتظم كالحياة، ولازالت تلك الأوراق تعطي مؤخراتها الرديئة من غير مشاهدين، أو حتى من غير أيد عابثة تحاول تمزيقها.. لا بل سال منها عفن التغيير على الجدران النظيفة... فتلوثت.



بيروت ١٩٨٦

« بديعة »

تبدأ الحياة كالغريزة قبل بدء التدخل القسري من جانب واحد، فلا حاجة ولا مبرر لثقل الجفون ورخوة الأعصاب في دفء متعة الهروب من مواجهة الصباح المقبل وعناء هذا اليوم القادم بما يحمله.

صحوة الزمن القابع في حجرة القلب، وحده التوقيت القادر برنينه المزعج على إيقاظ تعب الأمس، فإذا كانت العصافير تبدأ فرحة راقصة فربما هذا اعتقادنا.

مساحة صغيرة بين موت الليل وكثبان البداية في صحراء عمرنا، هروب مفاجئ نحو الأمام في ساقية العمر الشحيحة إلا من طعم المرّ المهتوك بإصرار الفرح الممنوع عن التصريح.

انهض يا زهير يا فايز يا حنان يا عاطف يا نعيمة، لقد تأخرنا هيا بسرعة..

وخرجت لتوها من الغرفة متوجهة نحو فناء الدار لأداء سنة الوضوء ومن صلاة قيام الليل، وهي على ثقة أن كلماتها كافية لإيقاظ الصبية اللائي بدت في جفونهم بقايا النوم، وهم يتوجهون الواحد تلو الآخر نحو الماء وذلك لإزالة يوم ما من أيام هذا العمر دون ترقيم وبدء يوم سيعرفون اسمه على سبورة الصف بعد ساعات

قليلة، وقبل البدء في السؤال عن وظائف الأمس، بديعة أو أم محمد تحرص حتى على الأشياء الصغيرة، فهي تخشى أن تسبب لأحفادها مرضاً ما يكون بسبب جلب الحليب من وكالة الغوث، فهي تسقيهم ماءً بارداً قبل أن تغلق باب الدار بقوة للتأكد جيداً أنه صار كالحائط، حتى أن هذا الصوت أصبح توقيتاً دقيقاً بدل الساعة عند من يقيمون صلاة الفجر من الجيران.

عندها تبدأ النسمات الأولى الباردة تداعب الوجنتين والرقبة، بينما الأقدام تهم بما أوتيت من حماس غامض لا تُعرف أسبابه، وكان الأطفال يمارسون هذا العمل كواجب تمليه عليهم رغبة خفية تؤكد الانتماء وقوة الارتباط مع هموم الكبار أو إن الزمن هو وحدة متماسكة لمراحله الثلاث أو فعلاً إن الإنسان لا يموت.

الليل لا زال في أحلامه الكونية يعصر في الروح برتقالات الصيف ووهج الصحراء.. بينما الخلايا الآدمية تختبئ مع نفسها تحت الأغطية تدفئ أرواحها بهذا العشق القادم قبل بدء الشتاء وبعده، فالشوارع خالية إلا من وقع أقدام المستقبل الغضة الطرية لولا أن الصقيع الأبيض قد صلبها قليلاً.

وقفت بديعة وأمامها خمسة فتية، كل واحد يحمل كتابه في يمينه ربما تيمناً بيوم الحساب، فجأة انطلق صوت بديعة من بين الأصوات المنبعثة من قرقعة التنكات الخاوية وأوعية الألمنيوم الصغيرة.. قالت:

لماذا أخذت الدور فأنت لم تأت إلا منذ قليل وأنا هنا أقف قبل آذان الصبح..؟

أجابتها امرأة أرملة كبيرة الحجم تدعى عيده:

أنا كنت قبلك وأنت لا تعرفين، ولكن تجنباً للبرد كنت أنا وأربع أطفال في تلك الذروة.

لكن بديعة لا تفوتها فائتة حتى ولو كان الأمر قابلاً للصح.. أجابت على الفور ودون تردد:

كذب يا عيده، أأنت تتركين دورك من أجل قليل من الدفء، فهذا هو الثدي الذي أرضعك، وهي تشير إلى صدرها.

وقد حاولت عيده بمحاولاتها أن تؤكد عليها ولكنها في كل مرة لم تتعلم أن بديعة لا تنطلي عليها ألاعيب الآخرين.

صاح عامل التوزيع من خلف قضبان متشابكة يعمل بسرعة كالآلة، وكأنه السجّان الماهر يقدم لرعية الظلم ما يكفي أودها:

اثنان وطفل .. خمسة وطفل.. وهكذا..

بينما كانت أوعية الأطفال تتلقف حليب العطف المنهمر كشلال صغير يثير كثيراً من الرغوة، كانت بديعة تأخذ منهم وتضع في التنكة وهي تحرضهم على السرعة ليأخذوا دوراً آخر بعد أن تعطيهم بطاقات جديدة وتأخذ منهم البطاقات المختومة.

كان هذا العمل عندما يبدأ يبدد صمت الانتظار وكذاك برد الليل، حيث الحركة وضحكات الأطفال وهم يباهون كيف أن عامل الإغاثة لم يعرف هذا أو ذاك وهو يكرر نفسه بأسماء مختلفة.

ساعة أو أكثر كان الأمر قد انتهى وامتلأت التنكات الثلاث لإمبراطورية بديعة التي تضم سبع عائلات وأكثر من عشرين حفيداً.

وبينما كانت المفاوضات على أشدها بين بديعة وبين التاجر الذي يقف خارج مبنى الوكالة، كانت عيده قد انتهت هي أيضاً من تجميع الحليب بأدوار صورية كان أولادها وأحياناً أولاد الجيران يقومون بهذا العمل.

وهي في كل يوم تتمتم: لو كان الأمر كالسابق كنا نضع له كروت الحليب مجتمعة وهو يضع لنا الحليب أيضاً مجتمع..؟

أما الآن فلابد لكل أن يحمله طفلاً أو امرأة.

وكأي يوم كانت تلتقي عيده وبديعة في طريق العودة وكأن شيئاً لم يكن فالتكرار يفقد دائماً جدية المواقف لتصبح عادة في المشاكسة وتفريغ الشحنات المكتومة، وتناغم الحديث كاسطوانة تعيد نفسها عندما ينتهي الوجه الأول، ومن ثم البدء في صباح آخر يقلب الشريط ثم يعاد.

الليل يقترب من عادته المألوفة، وسماء الأرض تشع بقمر لم يكتمل بدراً.. بصيصاً من الضوء الكوني يحضن معمورته برهبة الانتقال والانفصام المعتاد.. كالموت.. والحياة، شيئاً لا نفهمه نفهم منه كثيراً.. لكن لا أحد يستطيع أن يوقظ ملائكة الروح إلا تلك اللسعات الباردة في شتاء سماؤه من أيام الصيف، بعد أن تركت الأيام الماضية ذكراها في مستنقعات الماء وقليلاً من الثلج الرمادي المتصلب، تحت أقدام البؤس والإصرار على التنفس.

العيون تعبة منذ بدء الحركة الاستفزازية نحو رؤية الكون، وهي تنام على سرير الأرض الموشّى بدفء الازدحام، والأقدام تجمدت وهي ترتدي جزمات الجلد الطويلة دون فراء وحتى دون جراب مرقع والأصابع الناعمة تختبئ في جيوب أقمشة الإعاشة الأخيرة.

قالت عيده:

رحم الله الماضي، لم نكن نفكر بهذا الحليب وكنا نوزع منه للجيران، ونصنع منه اللبنة والزبدة والجبنة.. والذي كان يخرب في النهاية أكثر مما كنا نأكله.

ردت بديعة على الفور:

يعني كل يوم لازم سمة بدن عند هالصبح، فأنا من عرفت أنك فقيرة وأبوك أيضاً كان فقيراً، وهل الغربة يجب أن تعمل من كل الناس أمراء.

عيده: حتى ولو هيك، فأنا لا أتذكر إلا وكأنه كان لي كل شيء في فلسطين.. الوطن غالي يا بديعة، هل كان يحلم بهذا الذي جرى أحد.

بديعة: ضحكوا علينا ملوك العرب.. سبعة أيام.. وصاروا بعد شوي خمسين سنة.. اللّه يقطع ذريتهم وما يصلوا غير على بلاط جهنم.

عيده: يمكن يحلوها وناخذ تعويض؟؟

بديعة: اللّه لا يعوض عليهم..وإنشاء اللّه بتتحل رقابتهن.. إشو يحلوها.. يعني بدهن يحلوها مع يهود أمريكا وروسيا.. لا واللّه راح يجي يوم واحد مثل صلاح الدين يحررها.

واستمر الحديث المعتاد وهو يغرف من معين الذكريات الطويلة التي لا ينقطع شريطها من خيال الروح، والعيون تتذكر وقت الرحيل والهجرة وهي ترمش حسرة باكية، وأجنحة العودة تصفقان دائماً وهماً بالسفر إلى بلاد الربيع، ثم يغمرهما برد القفص الثلجي حتى يهدأن ويلملمان قليلاً من الدفء، بينما دموع الفرح والحزن تنسابان من عيون قبية ودير ياسين وجسر الباشا.. وفلسطين تقف جامدة كعيون التاريخ ليس لها من فعل شيء وليس من ظل يقيها حر الموت.

وانتهى الحديث المعتاد، واقتربت الشمس من خلف الليل والفتية تراكضوا بمرح البراءة يشهدون على ذنب ليس لهم ولآبائهم فيه من شيء.

المهرجــان

« ١ »

نتحت الأوراق الآدمية آلامها.. بعد تكرار الخلايا، فتصبرت في الدم أشواك الماضي، خوفاً من بوادي العرب المترامية أطرافها.. حتى غابات السواحل.

رفّ الجفن دائماً في العين اليسرى، وطنّت أذنها، حتى تحرك طمي الماضي المترسب في أعماق الكبار، فتعكرت بحيراتنا المطوقة بالملوحة والجدب، حتى أصبحت مرآة للشمس فقط في تاريخنا المعاصر.

التنفس صار ترعة ماء، لا تكفي لقطيع قليل من الأطفال، أو الحيوانات.

فتعلقت الروح مع باريها، شوقاً للحياة!!

ومالت الخلايا متلاصقة، فيحشد القيامة، وكان اللّه يقف بعد قليل وراء مكبرات الصوت - تذكر أحدهم الصراط المستقيم، وآخرين أيقنوا أنهم عراة، رغم الملابس، وعيونهم شامخة للسماء حرصاً على النبض في أقفاص صدرية؟! كادت أن تحجم القلب عن الرؤية؟! عرق يتصبب في أيام حزيران الحزين، من الاحتكاك المؤلم أحياناً، والصراخ على موت الشعارات في اللافتات المهتزة كزئبق على بلاط جهنم.

تحسستُ أقدامي ألماً.. حتى ثملت من وقع الدبكات الشعبية، فرحاً في عرس الأهازيج الملونة برائحة الموقف الملكي، الذي يعتبط عبق الدم الأزرق عبر التاريخ.

أمواج بحر عربي، أو هندي تلاطمت على شواطئ التاريخ.. والرمز البطل في مراحل انعطافه من أجل إظهار بواطن الروح.

لم أستطع رؤية الضوء، رغم عدم انبهاره.. حاولت العودة ولكن؟؟

الرؤوس تعصر من ذوائبها، ماءً مالحاً مختلطاً مع غبار معارك الانتصار في الماضي وكأنها مع حوافر الخيل في ذي قار.. قد تحولت إلى أطيان الحاضر اللزج عند بدء المهرجان.

« ٢ »

هيولى آدمية تتحرك كطيف دخان، تراقصت مع الريح، تارة تشمخ الوجوه المنكسرة في الضوء على مرآة التاريخ، والعرق الصيفي يعمل بها أخاديد جديدة مع غبار الأرض.

وتارة تسجى في همس التشاور، أو النقاش.. لتعاود الحياة عند أول كلمة يصرخ بها مؤذن المهرجان.

تحسست أنفاسي.. فهل أنا موجود؟! عاودت الحلم في الواقع، حتى ترعّف أنفي.. ونسيت من أنا.

قررت عمداً أن أتوقف عن الدوران، وتركت الأرض تهيم في فضاء الله وحدها، تخيلت "سيوز" امتلكها ثم اعبر القمر حتى؟؟

تكررت الكلمات.. ومقدمات القصائد، همد حريق النفس تحت رماد خادعه!! بدأ القادة.. من كل لون وحسب الانتماء، من هنا، من المدينة الرياضية "المنورة" في بيروت بدأ ممثلها.. ثم انتقل العزل الممل إلى حلفائه، ثم إلى. وإلى حتى جاء دور الأحمر اللبناني، وكذلك الفلسطيني لتدرج الألوان.

صمت مطبق.. إلا بعض المشاغبين الذين يحاولون دائماً بحكم العادة، أو الغريزة أن يبددوا أصواتاً لا يروق لهم سماعها، ومنهم من أجل الخلاف الأيديولوجي.

الآخرون، منهم من جلس القرفصاء، ووضع رأسه بين يديه، وأخذ يكبي بين ركبتيه، ومنهم من راح إلى همومه رغم أن عيونه كانت تحيط بالمكان تتبع ذكريات ما.. والقليل القليل منهم من تيقظ للقول بحكم الفطرة واتقانه حسن الاستماع.
بينما الأناشيد الوطنية، والأغاني المجترة عبر نهر الأردن.. لازالت تواصل المسير، نحو المتوسط، حيث رائحة الرطوبة، امتصت شيئاً كثيراً من صداها.

فجأة بدأ التصفيق الحاد.. بدأ القطيع يهوج لرؤية الراعي.. اندفع الناس لرؤيته.. اختنق بعض منهم قرابة الموت، وهُتِفت كلمة أو اثنتين تكراراً، من أجل الغريزة.

قفز الناس.. وداروا حول أنفسهم بفرح بدائي، وربما حول نار هندية، تقفرت الروح.. وعادت الطفولة!!

جاء البطل يرفع يديه بإشارة النصر "V" مدثراً رأسه في الماضي، ويحتضن خيمة دون قملات صغيرات من بوادي الأردن في عهد غلوب باشا.

« ٣ »

عند الوداع، وعلى ظهر سفينة تقل مواشي التجارة عبر المتوسط وشواطئ فينيقية، رفع يديه بنفس الطريقة، وحاول أن يلفظ كلماته المعتادة، ولكنه تلعثم.. فقالها صمتاً؟!

« ٤ »

أثناء المجزرة في صبرا.. كانت الأم التي استلقت أرضاً بفعل الرصاص حريصة على ضم رضيعها بيدها اليسرى!!

ورغم الموت ضمته إلى ثديها الذي اندلع، أو هي ربما دفعته إليه آخر لحظة.

حلمت كوميض البرق، ساقين شمرت حتى الركبتين في إشارة النصر للأعلى ولكن من غير؟؟ أما الطفل فقد استمر في التواصل مع حليب الحياة ولو لبعض الوقت.



١٩٨٥ بيروت

المقـــــر

هالـة سـحرية تلـف المكـان، وكـأنـه أسـطورة خرافيـة لازالـت تعبـث في بهـاء المدينـة المعاصـرة، قبـل أن يصـل أحـد إلى هنـا بقليـل كـان المكـان يعج بحراس الحاشية.. ومـن كـل لـون سياسـي اتفقـوا أخيراً على حماية المقر.

شارداً في ردهة المدينة الواسعة.. له ما.. له.. وعليه ما عليه.

المـارة يتنـاوبون مـلء الفـراغ المفـزع.. الباعـة يضـفون علـى الجـو بأصــواتهم المختلطــة برائحــة النفايــات وأنفــاس البشــر صــحبة الاستئناس بالحياة.

أطفـال ينظـرون إلى واجهـات المحـال الـتي عجـت بكـل رغبـات هـؤلاء، وصـورة جميلـة "عربـة تحتضـن طفلـة أو طفـل" تجرهـا امـرأة جميلة بين الزحام، مقاومة واضحة من أجل البقاء.

مـن بعيـد ومـن خلـف الأصـوات والصـور القريبـة هـذه، كـان صـوت يهـدد بالحـذر (وي..وي.. وي) سـيارات مسـرعة كالضـوء، أمامها وخلفها ترتفع بنادق الحراس، وكـلاب في الفضـاء تراقصت مع الموكب تشم رائحة الخطر.

كل شيء يحصل كأنه العادة، ولكن ثمة فزع لدى الصغار، وشيء من الحيرة وانقلاب المزاج لدى الكبار، رغم أن كل هذا يتكرر مع الأيام.

فالمقر إلى جانب هذه الفسحة المسائية المجاورة إلى غابة من الإسمنت، والمقر معروف لدى هؤلاء الذين يأخذون الهواء الملوث بشعارات البيان الختامي.



توافدت القادة، واكتظ المكان بالصورة العسكرية، جبهة حرب ضد مجهول.

تقدمت القافلة في الشارع الرئيسي والشوارع الفرعية، وكل أخذ مكانه، والبنادق تلاحق الهواء من اليمين إلى اليسار إلى أعلى.. ثم إلى الأرض!! تفرق الناس من الواحة خوفاً من نشوب الخلاف.. صار المكان أشبه بساحة حرب، إلا بعض المغفلين أو بعض من اضطرتهم الحاجة أن يمزقوا فراغ المكان بشيء من التعبير عن استمرار الحركة.



المجتمعون التفوا حول طاولة كبيرة عليها زجاجات ماء معقم، وكؤوساً نظيفة تلمع كأنها الشمس في مرآة حزيران، أيضاً الكثير من علب المحارم الورقية المتناثرة وحاويات متفرقة لالتهام النفايات العصبية بعد التعرق بقليل.

وأيضاً تناثر التبغ الأمريكي والأوروبي في كل أنحاء الطاولة حتى الشفى حفرة منها، وما عليك إلا أن تعانق يداك أي سيجارة تمد رأسها باتجاهك.

وفي وسط الطاولة وبطريقة هندسية وضعت بعض زجاجات الكوكا كولا الأمريكية، وإلى جانبها بعض الكؤوس الفارغة الفارهة التي تنتظر من يلاثمها.

وإلى جانب كل هذا وذاك كانت مجموعة من الأوراق وحافظة للأقلام من غير هدف تتوزع هنا وهناك حسب ترتيب الجلوس الجماعي إلى جانب وحول الطاولة المستديرة، أما الحشم والخدم فكانوا يتبادلون المكان بحرية متنظمة ويتأهبون إلى أية خدمة كالبرق، وكأنهم في عجلة دائمة من أمر عملهم البسيط!! وفي متعة العبد المرتزق تراه يهبط من غير إشارة نحو ما تريد.



التأم شمل الجمع ما عدا القائد، وتبادلوا الحديث أحياناً والشتائم أحياناً، وانقسموا إلى كذا فريق – لغة سوقية كانت تحكم هذا المشهد التاريخي – قليل من التهدئة لدى بعض الأطراف منعت استخدام الكراسي، أو زجاجات الكوكاكولا.

بـدأ العتـاب في لحظـة التراخـي (مشـاكل شخصـية .. ماليـة.. مشاكل لها علاقة بالمجال الحيوي).. أنت أكثر.. أنا أقل.. و.. و.. و.. حتى استقرت الخلافات على قضايا شخصية وفضائح مزرية (أنت عميل اللـ... أنت أخذت من كذا.. أنت لك رصيد في بنك.. أنت لك مزرعة.. أنت لك باخرة أنت.. أنت..) تارة يصعد.. ويحتدم الخلاف، وتارة يهدأ عندما يتدخل أصحاب الفضيلة ممن لا يزالون في عتمة النهار؟!! بدأ الشتام والسباب كادت الأيدي أن تتلاقى من غير سيوف القبائل العربية، وكادت داحس أن تعانق الغبراء عندما وقفوا جميعاً.. وصرخات الحشم والخدم، لقد وصل .. لقد وصل.



دمشق ١٩٨٥

رثاء إلى الشهيد ناجي العلي

مبدع الكاريكاتير

« حنظلة .. حلمنا »

كان في عمر الأرض تسعة شهور باقية، ليس فيها أي متسع للوقت، فهذا العمر هو حصيلة كل الإشراقات، لأن اليوم الأخير هو الشمس، هو البدء في رحلة الإحساس بالوجود، فما أصعب أن تغادر.. ما أصعب أن تصعد شجرة السنديان بحثاً عن غذاء لك، أو أن تفر من وحوش الغابة مضطرباً، كيف وأنت سيدها.

في أعماق تلك البحيرة تركن الأشياء مثقلة بحمل نفسها، فهي تواقة كي تطفو وخجولة بآمرها، ربما يشبه ذلك سجين في مهجع يواسي نفسه من خلال أمثاله.. لكن هنا تبدأ الأحلام الجميلة وتبدو الحقيقة في أجمل صورها مشذبة... مهذبة ضمن واحة الجوع القارس للحرية، ولا تجدي معك حينها دافعة أرخميدس، ولا دوافع القوى الخفية، فأنت ضمن وحل الأرض تشرب من طحالبها وتقتات من حماس الآخرين هؤلاء الواقفين على الشواطئ.

فيا أيها الصوت الخجول بحياء الرب، تمهّل في صعودك رويداً.. وريداً.. ولا يضجُّ صوتك مزمجراً على رفاقك.. فأنت الشيء الذي يؤنس به رائحة عرقك المتعب في الصعود فلماذا تسرع.. لماذا كل

هذه الجلبة.. فأنت لازلت في ريعان العمر تعشق حنظلة وتعشق الغيم واضطراب الطبيعة.. أنت الرغبة في زمن الحب العذري وفي وقت ازدحام إشارات المرور.. فأنت الوعي القادم والفعل البعيد... أنت العازف الموسيقى الذي خلدته الأجيال القادمة بعد موته.

يا قطار التسوية وذو المقعدين المختلفين بالاتجاه - أما آن لك أن تقف وقفة قصيرة في محطة التاريخ، كي نصحح المقاعد، وحنظلة هو خير الشاهدين.

ويا أيتها المجالس والمؤتمرات... أهدأ الآن روعك وانخفضت حرارة جبينك.. وأنت يا أيها الشبل الصغير أما كبرت الآن وصار عودك في عمر العرفان لأبي حنظلة.

أما جاع القلب من وحدته، أما طال انتظار السفينة، وحلقت في الفضاء طائرة النجوم وعلى ظهرها ربان الحقيقة، وذاك يتريض من خلف الديانات السماوية خليفة لا ينقصه إلا وريثاً.

فمتى يأتي الفجر يا صديقي إذاً.. ونحن لا نعلم بذلك إلا بحلم العقل... حيث قالت جدتي: أنها رأت حلماً ليس فيه سبع بقرات والحلم على كل حال هو سيد الآتي، فهو ما تستطيع فعله غداً... وقالت أنها شاهدت في ليلة صافية من ليالي الشرق أماً قد استفاقت من قبرها وهي تتلعثم بكلمات غير مفهومة اعتقدت لتوها أن يوم القيامة هذا هو، لكنها تماسكت بعد أن عرفت

بسـريرة الأم أن قلـب الأم لا يخطـئ ، فاستشـاطت غضـباً ومـلأت المكان صراخاً نسائياً وشعرها تدلى على وجهها الأصفر والأسـود ، وفي عالم الأموات ذهبت لتأخذ القصاص، فهناك الكثيرين ممن عرفتهم عبر الأزل في مملكة النهاية لا يختلفون.

فامتشـقت هـي وطفـل صـغير سـيفاً.. وراحـت تعمـل بهـم وتقـض مضاجعهم.. وكان يتساءل البعض حتى عرفوا بالأمر فساروا وراءها.

أحدهم رآها في منامه تعبر القمـر نحـو الأرض... وذاك قـال أنـه شـاهدها علـى قبـة الأقصـى.. وطفلـة قالـت أنهـا شـاهدت المـرأة مـع الطفـل وآخـرين قـرب ذي قـار.. ومنهم مـن قـال أنهـا عـبرت الكوفـة ليلاً ثم إلى فلسطين.

وفي إحدى الحارات القديمة في مدينة القدس أو في قرية قريبـة منها ، ولكـن آخـرون أكـدوا أنـه في مخيم عـين الحلـوة.. كـان قـد اجتمع نفـر مـن النـاس وتحـدثوا في الأمـر خلسـة تحـت جنـاح المسـاء الرطـب.. فقـال:أنـه عنـدما كـان في الحـج هـذا العـام وبينمـا النـاس كالطوفان يحملون حصاهم لرجم إبليس.. وقفت امرأة وإلى جانبها ذاك الطفل الذي يشبه حنظلة.. وصرخت بأعلى صوتها ، وهـي أيضـاً تبعث في هيئتها شعوراً خاصاً يـذكرك بعمورية ، ولكـن هـذه المـرة كـان النـداء مختلفـاً... فهـو لـيس للملـك أو للخليفـة بـل لبسـطاء هـذا الزمن.. لفقراء اليد وأغنياء الروح.

هـدأت أصـوات الحصـى والأنظـار اجتمعـت لمعرفـة مـا يحـدث.. أحدهم قال ما الخطب.. فقال الآخر ألا تصمت قليلاً كـي نعـرف.. وكـرجـع الصـدى وتبـدد دائـرة ميـاه دجلـة خـيم الصـمت تمامـاً.. وظهـرت أم الشـهيد كـروح الخنسـاء قـد رفرفـت طـيراً حنونـاً واسـتعادت ذاكـرة مـوت ابنهـا وامتشـقت سـيف زنوبيـا.. وأخـذت كالهدير بصوت الأم الغاضب تقول: لماذا الحصى هنا.. ارجموا ذاك الحجـاج المسـتمر عـبر التـاريخ.. ارجمـوا إبلـيس قـومكم.. أرجمـوا أبـاليس الشـر فهـي بينـكم ثـم أعـادت وأضـافت حتـى بـدأ النـاس يجتمعون ويتحدثون.. إلى أن شاهدت قليلاً من الناس يهربون من بين الجمع.. وإذا بالحصى ترجمهم والجموع وراءهـم.. وأنـا هـكـذا حتـى نسيت المرأة وذاك الطفل.. وما إن استدرت لأراها حتى كـان الطفـل الصـغير يضـحك ويرفـع يديـه فرحـاً.. فتـذكرت مـاذا يشـبه هـذا الطفـل.. إنـه حنظلـة بعينيـه الفرحـة ودمـه الحـار.. هـو ضـمير الشـرق الـذي لا ينـام عـبر السـنين... هـو في عصـر قنينقـاع وابـن الـنظير في عصر صاحب رسائل المناشدة والاحتجاج هو في كل الفضـائح الـتي لم تعلن... إنه بكل صراحة ضمير فلسطين...



دمشق

أيضاً إلى أبي حنظلة

الشهيد ناجي العلي

« حكاية نعرفها »

في المساء وقبل النوم اعتاد صلاح أن يسمع حكاية من جدته، وإذا لم يداهمه النوم فلابد إذاً من أغنية شجية وهي تربت على كتفيه أو تداعب شعره الناعم المتدلي منه قليلاً على وسادة النوم.

وفي أمسية هادئة لا يعكر صفوها إلا نقيق الضفادع البعيدة، وأصوات اليراع الليلية .. طلب صلاح حكاية تعينه على رحلة النوم وآلام السفر من وإلى بلد آخر اسمه الأحلام.

أجابته الجدة كعادتها: نحكي أم ننام، وعلى الفور قال لها: نحكي..نحكي، لكن كان لابد للجدة أن تصمت قليلاً تستحضر من جعبتها العامرة أي حكاية ما، ستكون وجبة دسمة لروحيهما، على الرغم أنه ليس من المهم أن تختار هذه أو تلك من الحكايا فالأمر سيان لدى صلاح، خصوصاً أن صبره ينفذ عند كل ثانية تمر هدراً، لذلك هو يواصل إلحاحه حتى يدرك أن جدته قد وقع اختيارها.. وبدأت.

في هـذه الأمسـية قالـت: سـأحكي لـك حكايـة لم أتـذكرها منذ أن حكتها جدتي لي في غابر الأيام والسنين، ولم تخطر ببـالي إلا هذه الأيام على حسب ما نرى ونسمع وهي بعنوان.. أبو جندل.

وما هي إلا لحظات قليلة إلا بلعت فيها شيئاً من ريقها كتوطئة لبـدء الرحلـة حتـى قالـت: كـان يامـا كـان في قـديم الزمـان.. فـلاح عرف باسم أبي جندل، كان يذهب إلى الحقل صباحاً ومعه جـراب نقول نحن عنه "الصرة" تضع فيه زوجته شيئاً من الخبـز والجـبن ومـا تيسر من طعام البيـت، أبـو جنـدل هـذا مثـل سـاعة الحـائط، أوقـات ذهابه محدده بدقة، وكذلك عودته، وأيضاً سـاعة نومـه، لا يعـرف ن هـذا العـالم غـير زوجتـه وأطفالـه وأوراق النقـد وكـذلك الـذهب الأصـفر، وإذا صـادفه أحـد في الطريـق كـان لابـد أن يسـمع مـن السخرية ما تيسر له من وقت وهذه المصادفة.

أيضاً لا أحد يزور أبا جندل هذا، حيث يعـرف بالبخـل الشـديد حتـى علـى أولاده وزوجتـه، بالمقابـل هـو لا يـذهب لأي مـن الجـيران وحتـى الأقـارب، فهـو يعتـبر أن النـاس يجـب أن يكونـوا عبيـداً..!! وعند من؟.. يقول أبو جندل: عنده هو طبعاً لأن أبا جندل هو أفهمهم كذلك هـو أقـدر علـى اغتنـام الفـرص الثمينـة، وهـو يعـرف مـن أيـن تؤكـل الكتـف، أبـو جنـدل هـذا لا يكـف عـن التهديـد والوعيـد

خصوصاً لأولاده وكذلك لزوجته الفاجرة حسب رأيه، إذ يقول سيأتي اليوم الذي تعرفون من هو أبو جندل.

ويا حبيبي صلاح بما أن الحظ غالباً يبحث عن أمثاله ويبتسم لهم، ففي يوم ما من أيام الصيف كان أبو جندل قد تأخر في حقله لسبب أو لآخر يتعلق بالعمل، وحين عودته كانت الشمس خلف التلال البعيدة وهي تقول: إلى اللقاء.. إلى اللقاء ملوحة بأشعتها الذهبية وكأنها يدا طفل يودع أباه.

سار أبو جندل بثقته المعتادة، أقدامه تحط على الأرض بثبات وكأنها أقدام هتلر تدك الأرض من غير رحمة.

كما أنه يعرف الطريق كما يعرف نفسه تماماً، فليس مهماً عليه أن يرى معالمه، ولا أن تأتي الظلمة.. فجميع أحذية عمره كان قد دفنها في تراب هذا الطريق، وما هو مهم جداً له أن يصل قبل أن يتأخر كثيراً على موعد نومه أو طعامه، وحتى يصل كان يخاطب نفسه.. كيف الطريق للوصول إلى القوة والمجد، أو كيف سأجثم على صدور هؤلاء من حولي وأجعلهم كالأرانب.. طبعاً إلى جانب التفكير بالأرض والمال.

فجأة يا حبيبي يا صلاح ... وبينما هو كذلك، وإذ بدب كبير يأتي من أعلى الطريق وهو يتمايل ويقفز أحياناً.

رآه على الفور أبو جندل وما كان منه إلا أن تسلق شجرة الكمثرى القريبة منه وصعد إلى أغصانها على أمل أن يستمر الدب في طريقه دون أن يراه.

ولكن يا للأسف ويا للحظ التعيس، حيث كان الدب بحاجة إلى النوم ولم يعجبه أي مكان آخر إلا تحت شجرة المسكين أبو جندل، الذي روعه أن يبقى هذا الدب هنا، فكيف له أن ينزل، فربما يستيقظ وتكون مشكلة كبيرة فأقنع نفسه بأن هذا الدب لن ينام إلى الأبد ولابد له أن ينهض من نومه ويذهب لشأنه، فتمسك أبو جندل بأغصان الشجرة حين أحس أنه ربط خصره مع جذع الشجرة بجراب الأكل الفارغ وذلك خشية أن تسهى عيناه فيقع لقمة سائغة أمام الدب.

وبينما هو في هواجس الخوف والضنك.. استفاق الدب من نومه العميق وأخذ يفرك عينيه ويحرك أقدامه ويمارس بعض أنواع الرياضة الخفيفة، عندها قال أبو جندل في نفسه الحمد لله رب العالمين.. أشكرك يا رب على ذلك، ولكن لم يمض وقت طويل حتى أحس الدب بالجوع، وأخذ يحرك عينيه هنا وهناك، فقال في نفسه: لماذا لا أصعد هذه الشجرة وآكل منها قليلاً من الكمثرى، وهي على كل حال أقرب موارد الرزق لي.

صعد الدب إلى الشجرة وتسلق أول جذع أمامه فلم تعجبه الحبات التي لم تنضج بعد، ولكن الأمر بسيط إلى الجذع الآخر.. وهكذا بينما أبو جندل يقف على آخر محطة له في هذه الشجرة، والدب لا زال يقطف الحبة تلو الأخرى فيأكلها ومن ثم إلى غيرها.

ومن غير هدى مد الدب يده ليأكل حبة سمينة صفراء ناصعة نضرة، يبدو أنها قريبة من أبي جندل، فاعتقد جازماً أبو جندل بأن الدب مد يده ليأكله، ومن دون أن يفكر أو ينتظر صرخ صرخة الحياة في وجه الدب وهو مقشعر برائحة الموت، بينما الدب الذي لم يكن يتوقع أحد على هذه الشجرة، اعتقد ربما بوجود شياطين أو جنية خرجت من باطن الأرض.. أو شيئاً لا يعرفه، فارتعد من الخوف وهوى إلى الأرض يتخبط بدمائه، وأبو جندل يعبط الجذع لا يستطيع الحركة أو حتى أن يرى ماذا حل بالدب وكأنه ثبت بحبل أو مجموعة مسامير.

في الصباح وبعد أن أضاءت الشمس الكون والحقول، نظر أبو جندل إلى الدب وهو يشعر بالخوف والريبة، وإذا هو ميت قد فارق حياته دون أي مبرر.

نزل أبو جندل إلى الأرض وهو يرتجف خوفاً، فربما كان يعتقد أن الدب قد نصب له كميناً، ولكن بحركة هادئة مرتجفة حرك برجليه أطراف الدب.. فلم تظهر أي علامة للحياة، وبينما هو

يهم بالذهاب تذكر ماذا يعنيه جلد هذا الدب.. فاستل حسامه الصغير جداً وسلخ الجلد وحمله إلى القرية.

ويا صلاح يا حبيبي، عند وصوله اجتمع الناس من حوله.. ما هذا وكيف ذلك يا أبا جندل، فقال لهم: أنه تقاتل مع الدب في معركة طويلة تارة هو يضعني أرضاً وتارة أنا.. وهكذا بعد معركة استمرت طوال الليل استطعت التغلب عليه، وأخذت كما ترون هذا الجلد، فليس في الأمر غرابة، أنتم يبدو لا تعرفون من هو أبو جندل.

وحمل نفسه مع غنيمته فرحاً بينما حملوه سكان القرية على أكتافهم وهم يهتفون ويصرخون لبطولة أبي جندل وقوة هذا الرجل العظيم الذي استطاع أن يخوض معركة غير متكافئة وينتصر بها.

في هذا اليوم الجليل يا صلاح.. من تاريخ القرية الحزينة صار أبو جندل مختاراً على سيف ورمح.. فغير من ملابسه وكذلك لم يعد يعجبه البيت، فاستبدله بقصر مترامي الأطرف فيه فرش وثير، وجاريات يخدمن أم جندل، حتى أنه اشترى مكتبة ضخمة على الرغم من أنه أمّي لم يدخل المدرسة في حياته، ومن يومها صار من الصعب عليك أن ترى أبا جندل أو حتى أم جندل.

ولكن يا صلاح يا حبيبي الصغير في تلك الأيام كان فرح فقير يرى عند كل مساء وعلى تلة كانت تطل على القرية مثل شيخ

جليل، طفلاً صغيراً كان يعطي ظهره للقرية ويداه إلى ظهره فوق بعضهما.

قال بعض الناس أن حنظلة يأتي في كل يوم ويذهب، ولكن دون أن نرى وجهه.. ورويت أحاديث كثيرة عن هذا ويعلم الله ما سر ذلك...

توتي توتي خلصت الحتوتي... ونام صلاح وهو يفكر بذاك الطفل الصغير.. حنظلة ولابد أنه قد نسي مثل غيره أبو جندل.



مصياف – سورية

١٩٩٤

خسِئَ من عاداكِ

لِمَ ترفعي ظهرك
مثقلاً ..وكأنه
طيرٌ مقصوص الجناحِ
أأخافتكِ مهجتي
من روحها.. أم أنا
في الوجود المباحِ
دمي شراباً
وحبي نديماً لكِ
من غير شراعٍ أوملاحِ

❖❖❖

أستلهم الروحَ
عبر الوجد ملهمٌ
وكأني عِشقاً
لشفاهِك من غير نواحِ
الأرضُ وما عليها
وأنا.. وأنتِ
والمدنُ والأنهارُ

إعصارٌ في جراحي
يا روحاً..لا تعرف طعماً
إلا لنديم عينيكِ
ورحيق قلبكِ المتاحِ
يا رمشاً تردد
في الوقوف بين اللظى
والبحث عن مكانٍ للإرتياح
بحق الرب لا تمسكي يدي
وقلبي عند الرحيل
واتركي جناحي

❖❖❖

فلسطين دمي
وحبي لك شراباً
يا وردةُ لقاربِ
من غير شراعٍ وملّاح
زهورك خدّ
عليه حمرةُ الحب

الأين آصفُ..؟

وماذا أثركُ من محّياكِ

حديقةٌ للحبِ

والمدى البعيدِ

أنت وأنا

روحين لما عشقناكِ

رباه .. رباه

غُضَّ الطرف قليلاً

فالموت والحياةُ

مسافةٌ للقياكِ

يا روحاً من الأرض

والبساتين

يا حباً نتشتْ

البذور من أجل رؤياكِ

❖❖❖

دعي حبي.. وروحي

وعمري.. وأيامي

فأنت..

شبقٌ وإعصارٌ

لا يمكن أنساكِ

❖❖❖

رسموا لكِ

في المؤتمراتِ نقيضاً

ولكن أنتِ

أنتِ

فلسطينُ

وخسئَ من عاداكِ.

❖ **المقطوعة الثالثة – لبوابة الوعي:**

١ - السواد لا يخبئ نفسه.

٢ - أستاذ التربية.

٣ - البطل العربي في الرواية الصهيونية.

السواد لا يخبئ نفسه

إهداء إلى شهداء الأدب والفكر والعلم

والفلسفة والحرية في الجزائر

حركة هلامية بدت وكأنها تموج ذهاباً وإياباً.. يميناً ويساراً ، بلزوجة لدنة ، كحوّام بحري مراوغ في صباح غير معترف به ، كأيام الشتاء مثلاً.

من بعيد كان المشهد مختلفاً ، يحق أن يقال عنه حمالا لأوجه عديدة ، فكيفما تشاء تفسيره في المخيلة يصح معه الواقع ، ولو لبرهة من الزمن.

اقتربت شيئاً فشيئاً حتى تبددت دوائر الحركة ، وإذ أنا صرت عن غير قصد في مركزها ، تراكبت في مخيلتي أشياء خطيرة ، وصور ذات طابع غير أليف.

أصوات مختلطة برائحة الرطوبة ونفايات الخضروات التي عجنها البشر تحت أقدامهم لتصبح وجبة دسمة للتخزين البطيء تحت الأرض ، دون اعتبار لمقدسات النعمة ، كالخبز مثلاً!!

في الجانب الآخر كانت أكياس من البطاطا مكدسة فوق بعضها بارتفاع أكبر من علو إنسان طويل القامة ، وأمامها إلى

الجانب الآخر كانت صناديق تحتوي على مادة أخرى مرتبة بشكل جيد فوق بعضها البعض، وكأن آلة نظامية أشرفت على ترتيبها، وبين هنا وهناك يوجد طرق فرعية، كذلك صناديق مكشوفة على أطراف هذه التلال يتناول البشر منها بحركة مضحكة ما يلزم لهم بأكياس النايلون، وقد تشبه لي ذلك كفيلم على شريط فيديو يمر بحركة سريعة لمجرد كبسة زر، وأنا كنت أحاول البحث عما يجب شراؤه، أو عما قد كلفت به من أميرة المنزل، وللحق فقد نسيت وتاهت أفكاري بين تيه الصناديق والأكياس والبشر.. والشاحنات والطنابر.. والأصوات والروائح.. والذي زاد الطين بلة أن حماراً نهق بصوتٍ عال ربما للاستئناس مع الأصوات المشابهة قليلاً، والتي كانت تنبعث من غير ضرورة أبداً، أحدهم دعم في كتفي بشكل طائش، مما أيقظ عالمي الخاص، وجعلني آسفاً في صحوة الواقع، وشتان بينهما، المهم لم يعجبني أن أحوم في دوامة مجنونة، حتى ولو أردت ذلك، فالمشهد يتضخم في مخيلتي حتى يصبح من الصعب عليّ التقاط أبعاده القريبة من بعضها، ليبدو لي عالماً كبيراً فيه خارطة مترامية الأطراف، ألمح منها شيئاً فشيئاً جزءاً يسيراً، كحدقة عين بدت لتوها تتعرف على المكان، تابعت المسيرة، وكأنني في مهرجان تنكري صاخب، أو في جنازة لرجل عظيم.

وبينما تسير الأمور هكذا صباحا ، وإذا أنا أجد أقدامي تقف أمام بائعي اللحوم، أو كما تخيلها عقلي كانت منذ يوم ترعى في مراعيها ، فسمعت أصواتها المألوفة وهي تستغيث ، تذكرت بعد هنيهة أنها ميتة... إذاً هنا تباع الأموات؟!!.

تساءل من هو في داخلي "كم هو عصي على فهمك أن تعرف أنها حقاً لم تمت بعد" ليسرق ناظري فرش من السمك الراقد في بحيرة من الثلج، فتابعت الفكرة.. آه طبعاً.. فالموت لا يبدأ إلا عند نهاية الرحلة (القبر).

رفعت رأسي كالإوز يترقب المكان جيداً ، فرأيت حبات من البندورة تظهر احمرار خجلها من هذا الموقف، بينما باقات البقدونس والنعناع، وحشائش أخرى كانت تحاول الإجابة عن كل التساؤلات، فقط لوجود الحياة بين ظهرانيها.. لكن ألا يختلف الواقع كثيراً؟؟.

قلت في سرّي: "ما أجمل الورود الحمراء وهي على أمهاتها". فجأة سمعت دوياً لرصاصات بدائية قياساً لأسلحة العصر الحديث خرزت رأس أحد الكتّاب وهو في مهمة خاصة مثلي، فأوقفته عن الكتابة ، وكأنها أخاطت العقل بخيط من النار ، أو هي تظن ذلك؟؟. سمعت عنه من أحدهم يقول: إنه الكاتب.. إنه.. إنه.. ارتعدت فرائصي وخشيت طلقات أخرى موجهة عليّ، فأنا أفكر أيضاً على الأقل.

حاولت حماية نفسي في مكان آمن، فتراءت لي حركة مبهمة ظننت أن أحد أكياس البطاطا قد وقع من فوقي، أو بسببي، فعبطت ذاك الكيس، وإذ هي امرأة ملفعة بغطاء واحد من الشوشة حتى أخمصيها العاجيين المختبئين تحت السواد.. صرخت وادعت بالاغتصاب.. فكانت النهاية بشكل سافر.. والأميرة مازالت تنتظر عودتي.

أستاذ التربية

قبل أن يتناول فنجان القهوة الصباحي، الذي يعده بنفسه، أحياناً وأثناء وقوفه أمام دلّة القهوة (حتى لا تفيض حممها على النار الهادئة) كان يسمع نشرة الأخبار المبكرة من إذاعة اعتاد سماعها، لما تتميز به من صدق الخبر أحياناً، وهذا صار نادراً حسب تعليقاته أمام الطلبة، أثناء ذلك تغط الزوجة في نوع عميق، حتى أنه يتعمد إيقاظها برفع صوت المذياع، لكن من غير جدوى، فكان يعتقد أن مثل ذلك يزيد في متعة النوم لديها، لكنه يتراجع ليكرر العملية وهو يحدث نفسه: معقول!

وفي كل يوم يردد نفس العبارة أثناء خروجه، لكن بصوت عال (نومة أهل الكهف) في الطريق يتلاقى مع عشاق الصباح – العمال والطلبة وتلاميذ المدارس من الصغار والكبار قليلاً، ويذهب دائماً بعيداً إذ يقول: - والله كانت أمي على حق عندما قالت (إن الله يوزع الأرزاق صباحاً، ومن يتأخر فليس له نصيب) ويضيف كلاماً قالته له أيضاً (نام بكير وفيق بكير وشوف الصحة كيف بتصير) ويقول لنفسه... طبعاً.. طبعاً ها هو غاز الأوزون يهبط فقط في الصباح الباكر، وهذا الغاز مفيد ومنشط جداً لهذا الجسد الذي يتحرك على الأرض كالريح في كل صوب.

يستنشق الهواء،ويحس بنفسه وهو يعبّ في رئتيه أنه أخذ حقه الشرعي من الطبيعة، كالماشية الوليدة وهي تقضم حشائش أول الربيع... ثم لا يلبث أن يتذكر، أن حديث الماضي أقرب إلى الحياة... طبعاً ولم لا، فالذين كانوا قبلنا كانوا أكثر التصاقاً بالطبيعة... اللعنة على المدينة... وعلى الحضارة.

يحاول أن يرمق وجوه الناس خلسة، ليطأطئ رأسه فوراً، وهو يحاول القول في سره: - إنها هزائم التاريخ، فذاك مرسوم على وجهه هزيمة عام ١٩٤٨... وذاك هزيمة عام ١٩٦٧... وذاك.... وذاك.... وذاك....

يغض الطرف، ويتحرك مثل رجل عزم على اختصار الوقت، بمجرد كبسة زر، لا يدري أخيراً بنفسه كيف وصلت قدماه إلى باب المدرسة، وهو يؤدي التحيات الصباحية الباهتة المستيقظة لتوّها من الرقاد، فكان لحظتها يميل أكثر للرد على تحيات الأطفال اليانعين لما فيها من إشراق واضح يشبه شروق الشمس في هذا الصباح.



صباح الخير

صباح النور يا أستاذ

اليوم سيكون درسنا أثر العلم والعمل في بقاء الشعوب..

في الحقيقة إن هذا الكوكب يعيش في بعض أجزاء منه نمط من الغرائبية الفظيعة التي تفصل الإنسان في بعض بقاعه عن جذوره، وعن نموه الطبيعي، بينما يبقى من تبقى من الكائنات التي سلمت من جور الإنسان تعيش في نعمة وجودها لأنها تتجاوب مع متطلبات الحياة.. هذا إذا توفرت أسباب ذلك، كذلك الشعوب المتطورة الآن، والتي أنجزت ما عليها من الواجبات، فتلاقت من حيث الغاية مع الكائنات الحرة.

المهم أيها التلاميذ، إن عادة الاستيقاظ باكراً تؤكد هذه المقولة، كذلك العمل باكراً، مثل العصافير، والحيوانات الكثيرة الأخرى التي تنام في الليل، وتعمل منذ بواكير الشمس، أيضاً ما يؤكد ذلك دون أدنى شك أن الانتصارات التي تحققها الشعوب القوية يدل عليها مدى تقدمها العلمي.. فلا حياة على هذا الكوكب لكسول.. انظروا إلى النمل كيف يعمل جاهداً في فصل الصيف فهذا بمثابة النهار عنده، وكيف ينام في الشتاء وهذا بمثابة الليل عنده.. إذاً يجب عليكم أن تكونوا أهلاً للنشاط والعمل والإبداع، فهذا عنوان الحياة.

تلميذ يسأل:

أستاذ، لماذا نحن متخلفون وغيرنا متقدم، فهل لأن البعض مثلاً لا يستيقظ باكراً؟

الأستاذ :يا بني إن الأمور لا تؤخذ بهذا الشكل الأحادي الجانب، فالاستيقاظ ضروري للتقدم، لكن عندما يكون هذا الاستيقاظ ضرورة للعمل الناجح والمفيد.

تلميذ في المقعد الأمامي:

أستاذ، كيف يكون العمل ناجحاً ومفيداً؟

الأستاذ :يكون عندما نبدأ بقصد الجد فيه ويكون أكثر وضوحاً في المجتمعات المتكونة على أساس ذلك، ليصبح العمل ضرورة عامة بشتى صوره، كذلك ضرورة منطقية للحياة، وليس ضرورة لأهداف الفرد فقط.

تلميذ في المقعد الوسط:

إذا لم تتكون هذه البنية حتى الآن، فما فائدة الاستيقاظ الصباحي المبكر، والبحث عن أهدافنا الفردية؟

الأستاذ :إن قانون التراكم يؤدي إلى تغير نوعي، فالعمل الفردي الآن ضرورة، ولكنه ضرورة عامة، وذلك مع عملية التقدم، واستكمال الشرط المعقول لذلك، وإلا فكيف غيره، فهل تهبط الحضارة علينا من السماء؟!

تلميذ في المقعد اليساري:

أستاذ ، ليس من العقول أن يبقى الأعداء متفوقون علينا حتى نتطور بهذا البطء الشديد ، وبهذه الحالة ستكون هناك إعاقة لذلك، والهوة بيننا كبيرة، فلماذا لا يكون شكل الانتقال يراعي هذا الاحتمال المحقق؟؟

الأستاذ :إن العلم الآن ليس حكراً على أحد... وأقول لكم أن نبدأ... ويجب أن نبدأ بشحذ السيوف، وإلا مصيرنا الموت، إن النشاط والعمل والهمة العالية تؤكد لماذا تنتصر الشعوب على الحياة، وعلى قساوتها... ففي الأمس كنا نحن... وكان الصينيون... والرومان.. والفرس.. والآن أوروبة واليابان... فلماذا لا تكونوا أنتم غداً... فلا تيأسوا أيها الطلبة فالزمن لا يقاس بالأيام والعقود ، وليس هناك من زمن ثابت، ولا تاريخ يسير باتجاه مستقيم... وما الهزائم إلا لضعف أصاب الأمة.

تلميذ في المقعد اليميني:

أستاذ ، في قنابل ذرية... وهناك أمريكا التي تمتلك القوة مثل قاطع طريق.

الأستاذ :قد نخترع سلاحاً لم يتوصلوا إليه بعد ، وقد يكون من غير كل الطرائق والأساليب المتبعة لديهم.. وقد يكون أكثر خطراً من أسلحتهم فالحياة غنية.. والحياة لمن يبدأ في معرفتها ،

وأعود وأكرر قبل أن تنتهي الحصة المخصصة، إن الحياة للذين استيقظوا أو يستيقظون باكراً... إن الحياة لمن يبحث عن ضالته.

وقبل أن يقرع الجرس بقليل سأل طالب من المقاعد الخلفية:

ليش يا أستاذ ما نشتري سلاح متطور مثل الصواريخ بعيدة المدى وندمر العدو.. مش أحسن من تعب حالنا.. ونستيقظ باكراً.. أو مش أحسن من حرب العصابات.

الأستاذ:من الضروري أن ندافع عن أنفسنا بالطرق المتوفرة، ويجب أن نسعى لامتلاك أي سلاح نستطيع الحصول عليه، لكن هذا لا يمنع من أن نحاول أيضاً من أجل بناء الإنسان القادر على صنع مجده بنفسه ..و... حتى قرع الجرس.

كان الأستاذ واقفاً يضع يديه على كرسيه القابع أمام الطاولة، وهو يتصبب عرقاً ليردد كما في الصباح عند خروجه من البيت.. "نومة أهل الكهف".. هيا إلى الباحة.



قمر على شمس كتاب

« أدب المقاومة في فلسطين »

الفصل الثاني " البطل العربي في الرواية الصهيونية "

للشهيد غسان كنفاني

في لُجةِ الأصوات التي ترتفع الآن بالحق اليهودي في فلسطين، وفي خضم الخطأ الذي لا يقدّر باعترافنا لهذا الحق الناجم عن جهل مدقع في أوليات فهم التاريخ وقصر النظر في رؤية الأشياء على أساس من العلمية والمنطقية، أو للبعض عن دون دراية وقصد، أو منهم من أخذ على حين غرّة.

أقدم شيئاً من رائحة هذا الكتاب على أرضية النقد الإيجابي، وذلك بعد استشارة شهيدنا الذي حاول ويحاول بما تركه النهوض بنا، بعد أن طلب نبش قبره ليعود حياً في ضمير الأموات الناهضين على الجماجم، والعظام التي بدأت تتحلل إلى عناصرها الأولى في المقابر.

وعلى أساس من القراءة الإيجابية، لأنه ليس لدي عكس ذلك، فكل ما سيأتي من قولٍ لي به سيكون من حق شهيدنا نبراس الحضارة...

العرق والدين:

قبل أن يبدأ شهيدنا الحديث عن الأدب الصهيوني، والبطل العربي في هذا الأدب مقابل البطل اليهودي، فإنه يقف مطولاً أمام الأيديولوجية الخاصة في دمج كلمتي العرق والدين، وذلك يقيناً منه أن هذه هي الأرضية التي تحاول الحركة الصهيونية عبثاً أن تكّون أمة غير قابلة للتكوين.

فالديانة السماوية ليست حكراً على أحد، أو على أي من أصحاب الانتماءات الثانية التي لها علاقة بالجغرافية والعرق، ولهذا جاء الدين كتنظيم أعلى "من تجاوب الروح مع السماء"، فقرر أن يكون هو المتسامي - المنفرد بانطلاق الجوهر مع الأشياء والمُهذب للطبائع.

فالدين إذاً هو الصيغة التي قرر الإنسان أن يكون فيها ومنها من أجل جمالية الوجود المُدرك والمحسوس، رغم كل حاجات الناس بأن يعرفوا أن كل هذا.. لماذا؟؟

وبقدر ما في هذه الأديان جميعها من التسليمات المطلقة والمريحة، بقدر ما حاول الإنسان أن يفاخر وخصوصاً في منطقتنا العربية بأن هذا كان من إبداع الرب فيه، وبشعور خاص يعود إلى تفوقه كعرق أو كجغرافية.

ويخطرنا القول هنا : إذا كانت الديانات السماوية الكبرى أنجبتها المنطقة العربية ، وقد انضوى تحت ألويتها عروقاً وشعوباً مختلفة ، كالمسيحية في أوروبا مثلاً ، والإسلام في إيران وباكستان، واليهودية في روسيا.. فيجب رغم كل التحفظات الخاصة للشؤون الدينية أن تضفي على هذه الديانات الصبغة المحلية للمنشأ ، وأن تكون عاملاً ضرورياً للتأثير المباشر أو البعيد على التكوينات الاجتماعية والسياسية.

إلا أن المنطق التاريخي المقونن بمجموعة من التحديدات المادية والنفسية وكذلك الجغرافيا والاقتصاد واللغة ، جعلت من الصعب لا بل من الاستحالة أن يكون الدين والذي هو "دين الإنسان بلا حدود" مفتاحاً سحرياً يجعل من الفرنسي هندياً أو من الألماني عربياً في دولة ذات ديانة محلية مثل "إسرائيل" وكأن نصيب المنطقة العربية أن تتطفل عليها ليس بمحض الصدفة ، ولكن بمحض الضرورة مشكلات اليهود ، وقد وضعت هذه المنطقة عبر أجيال مختلفة في هذا الصراع الدامي مع هؤلاء المنغلقين على الذات والمسعورين للتفرد والخصوصية والتفوق.

يقول شهيدنا غسان: "إنه من الواضح أن بعض مجتهدي الديانة اليهودية كانوا الأداة الأولى التي حاولت دمج كلمتي العرق والدين دمجاً كاملاً ، وهو أمر فعله عدد من مجتهدي بقية الأديان تقريباً

وبوسائل مختلفة في فجر ظهورها ، إلا أن مجتهدي اليهود هم وحدهم، لأسباب لا تدخل في نطاق هذا البحث، الذين حرصوا على مواصلة هذه المحاولة على مدار القرون". وقد سبب هذا الاعتقاد كراهية كونية ومذهبية روحية وفلسفية عالمية.

يقول سيغموند فرويد في كتابه "موسى والتوحيد" : "لقد خلق موسى شخصية اليهود بإعطائهم ديناً صعّد ثقتهم بأنفسهم إلى درجة آمنوا معها بأنهم متفوقون على كل الشعوب الأخرى، ولقد خافظوا على هذا التفوق على الآخرين".

الأعمال الأدبية الصهيونية:

يقول شهيدنا : "إن الغالبية الساحقة من الأعمال الأدبية الصهيونية لم تستطع أن تقدم قيمة لأسطورة التفوق اليهودي المنبثقة عن المزج بين الدين والعرق".. "غير أن هذا التفوق هو احتقار عرقي لبقية الشعوب، وخاصة للشعب العربي الذي كان من حظه أن يواجه الصهيونية مواجهة مباشرة".

وفي ذلك يستشهد رفيقنا بكتاب صدر عام ١٩٥٥ عن دار نشر أمريكية صهيونية بقول س.د غويتين أستاذ الدراسات الشرقية في الجامعة العبرية في القدس المحتلة اسمه "اليهود والعرب – علاقتهم عبر الأجيال".

فهذا الكتاب يوضح زيف هذا المزج بين العرق والدين خصوصاً عندما يتصدى للجواب على السؤال الهام التالي "إذا كان العرب واليهود ينتمون إلى واحد..فلماذا اتخذ تاريخ الشعبين اتجاهين مختلفين؟".

حين يتصدى للجواب يتجاهل أن الشعب اليهودي لم يكن خلال الألفي سنة الأخيرة وحدة قومية وجغرافية وحضارية وثقافية واحدة، ولذلك فهو يحاول سد هذه الثغرة في البحث عن الفروق بين تاريخ الشعب العربي وتاريخ اليهود بأن يستشهد بـ "مميزات اليهود الغيبية" الأمر الذي يدفعه مباشرة إلى التقرير بأن تفوق اليهود على العرب عبر التاريخ يعود لأسباب عرقية، لميزات مخلوقة خلقاً مع اليهود ومحرومة بالقضاء والقدر عن العرب.

فالكاتب يعتقد أن أسبقية الدين تنبثق عنها أسبقية الإنسان من حيث الوعي والقيمة.

يقول غسان كنفاني: "إن هذا المثل هو نموذج واحد فقط على المنطق الذي يجد أي باحث يهودي نفسه مجبراً على تبنيه حين يريد أن يتصدى للدفاع عن مزج الدين بالعرق"

وفي موضع آخر يواصل غسان :" إن الكاتب الصهيوني يفقد موضوعيته ليس كلما اقترب من الأحداث والشخصيات، ولكن كلما ابتعد عنها، ويبدو أن هذه الظاهرة المهمة هي دليل واحد

فقط على ارتطام الوهم الصهيوني بالواقع الماثل وسقوطه نتيجة هذا الارتطام.

البطل العربي والبطل اليهودي في الرواية الصهيونية:

"ففي الوقت الذي يبدو فيه البطل اليهودي معصوماً ومتفوقاً، بالمقابل يبدو الإصرار على احتقار الجانب الآخر، أي العرب، حتى أن قصص رعاة البقر الأمريكيين لا تستطيع أن تتوصل إلى مضاهاة الأعمال الأدبية الصهيونية في ذلك المستوى من انحراف الرؤية".
غسان كنفاني

وفي موضع آخر:

"وبالطبع فإن أي رواية صهيونية لا تخلو من الاستعانة بسلاحين شديدي الإغراء – أولهما التطويل في الحديث عن المذابح التي قامت بها الهتلرية، وثانيهما الربط بين الصهيونية ووعود التوراة بشأن فلسطين.

وحين يبدأ أبطال هذه القصص (وهم أبطال يجيئون من ألمانيا الهتلرية بمعجزة، تاركين مقابرها ومعتقلاتها وأمهاتهم وأخواتهم وأصدقائهم، وهم أبطال يحفظون التوراة دائماً عن ظهر قلب) حين يبدأ هؤلاء بالتعامل مع أعدائهم –وهم لسوء الحظ في فلسطين وليسوا من الألمان ولا يحفظون التوراة غيباً، فهم بحاجة إلى نوع من الأسلحة الجديدة فلا يجد الروائي الصهيوني مناصاً من أن يجعل

قضيته مع هذا العدو قضية "جداره" في الحياة وفقط، ولذلك ينتهي المؤلف مجبراً إلى الاعتقاد بأن العربي هو دائماً وضيع وغير إنساني وخاطئ، وأن اليهودي هو دائماً بطل وإنسان على صواب فكرياً وبدنياً وحضارياً".

ويأتي غسان كنفاني بمثلٍ عن رواية اسمها (نجمة في الريح) من تأليف (روبرت ناثان) حيث تصف هذه الرواية الإنسان العربي بأنه جبان ويفضّل أن يطلق ساقيه للريح عن أن يقاتل، وإذا قاتل فليس لديه أي سبب إلا النهب، وهو لا يجيد التصويب، وإذا هرب ترك إخوانه القتلى دون اهتمام، والطائرات العربية إذا أغارت فهي لا تقتل إلا النساء والأطفال.

وكذلك في رواية (لصوص في الليل) من تأليف أرثر كوستلر حيث تصف سكان قرية عربية كاملة بأنهم من الأميين والبهاليل، وفي (أكسودس) من تأليف ليونس أوريس، تجد أكوام من الشتائم الغريبة والتي أورد غسان كنفاني مقاطع صغيرة مختارة تعطي فكرة عن الطريقة التي عالجت فيها هذه الرواية قضية العربي مثلاً.

"قال جوسي: بالنسبة للأتراك بوسعك أن تشتريهم، أما بالنسبة للعرب فيجب أن تتعلم كيف تعيش معهم بسلام، رفع ياكوف قبضة يده ولوح بها في الهواء وقال: "شيء واحد يفهمه العربي، إنه يفهم هذا فقط" ص٢٤٤ .

وفي (أكسودس) نفسها يرد في الصفة (٥٢٠) "أما حوانيت العرب فهي لم تكنس منذ عشر سنوات على الأقل".

وأيضاً في أكسودس يظهر شاب عربي في الرواية يتمتع بميزة جيدة ليستحق عطف المؤلف وأبطاله فهو يعتقد – أي الشاب العربي – أن اليهود هم الخلاص الأوحد للشعب العربي، واليهود هم الوحيدون الذين جلبوا الضوء إلى هذا الجزء من العالم في الألف سنة الأخيرة. ص٢٧٩ .

أما الشاب العربي الآخر (طه) الذي يحظى جزئياً بعطف المؤلف وأبطاله فهو من الطراز الذي يشرحه المقطع التالي:

"قال أري: رجاءً ساعدني، فأجابه طه:

أنا عربي.

أنت إنسان، أنت تعرف الفرق بين الصواب والخطأ.

أنا عربي قذر!

أنت الذي تعتقد ذلك بنفسك.

إذا كنت أخاك، إذن أعطني جوردانا - نعم، هذا صحيح، أعطني إياها واتركني آخذها إلى فراشي، دعها تحمل مني أولادي.

انطلقت قبضة آري وسحقت فك طه فأرسل العربي راكعاً فوق ركبتيه وراحتيه"ص٥١٥.

وعلى الضفة الأخرى ما هو البطل اليهودي؟ وكيف تعرضه الرواية اليهودية أو تصفه؟

هنا يحدد غسان كنفاني مجموعة من التحديدات لهذه الشخصية المتفوقة المعصومة التي لا حد لبطولاتها ولا ميزان لصوابها المطلق وهي كما يلي:

أولاً: البطل غالباً ما يكون قادماً من أوروبة مهاجراً إلى فلسطين بدافع وطني وأخلاقي تاركاً وراءه مذبحة طازجة في ألمانيا، وهذا تكرر في "أكسودس" بشخصية دوف، وفي "نجمه في الربح" وفي "الانتصار الأكبر وفي "الإغراء الأخير" وفي "غبار" ليائيل دايان وفي "في أعقاب خيال عملاق" من روايات السيرة.

ثانياً: إن البطل أو البطلة يقع أحدهما في غرام شخص غير يهودي، وعن طريق العلاقة بينهما يقدم المؤلف شرحاً للصهيونية.. والنتيجة طبعاً أن يكتشف غير اليهودي عدالة القضية اليهودية، فيصبح بدوره جندياً من جنود الصهيونية.

ثالثاً: العرب، بصفتهم الطرف الآخر في الرواية، لا قضية لهم، لا بل هم خرّبوا فلسطين وهو جهد يترافق عادة بمحاولة لتضخيم آثار اليهود فيها.

رابعاً: يظهر المؤلف عادة اضطهاد العالم لليهود.. وبالمقابل يظهر تماسك اليهود كأقلية مع جهدها البقاء في جو معادٍ.

وغالباً ما ينقلب إلى هجوم فيه الكثير من التصغير والاحتقار كما حدث مع ليون أوريس في "أكسودس" حين تحدث عن مقاومة اليهود في بولونيا فأفرد صفحات لتصغير واحتقار البولونيين ص١٣٠ .

خامساً: بسبب فقدان الرابطة الجغرافية واللغوية والتاريخية لليهود لا يستطيع المؤلف الصهيوني في حديث عن اتجاه إلى فلسطين أن يتجنب اعتبار الدين والعرق كدافع واحد داخلي يصاحب الدوافع الأخرى (الاضطهاد الهتلري) لهذه الحركة.

"إن هذه المحاور الخمسة تشكل معاً الهيكل العظمي للغالبية الساحقة من الأعمال الأدبية الصهيونية". غسان كنفاني

فمن هذا السياق يأتي غسان كنفاني على قصة بارزة لبنيامين تموز اسمها "السباق" وهي تحكي عن صديقين عربي ويهودي.

"قبل عام ١٩٤٨ كانا يتسابقان سباحة في نهر قرب يافا وكان العربي يفوز دائماً" وفي الحرب احتلت مجموعة من اليهود بيارة برتقال، وفجأة يكتشف قائد المجموعة اليهودية أن قائد المجموعة العربية هو صديقه القديم، ويبادره العربي قائلاً وكأنه يكمل حديثاً: "حسناً لقد فزت أنت هذه المرة" إلا أن اليهودي يجيبه

"كلا ليس بوسعك قول هذا إلا بعد خروجنا من الماء" ويبتسم العربي بأسىً فيما يخلع اليهودي ملابسه وينزل إلى النهر، وهناك يسمع طلقة رصاص فينتابه شعور بأن صديقه القديم قد قتل، يخرج فوراً فيجد صديقه ملقى على وجهه ويقول له الجندي اليهودي "لقد قتل خطأ"وحين يقلب جسده يرى فوق شفتيه ابتسامة غامضة، كأنه هو الذي فاز في السباق فعلاً.

أما غسان كنفاني فيرد بعنف على كل ذلك بقول: "إن الذي نريد التوصل إليه هو مايلي: إن إخضاع الأدباء الصهاينة المستلزمات الفنية لأعمالهم الأدبية إلى متطلبات الدعاية الصهيونية وإلى أسسها النظرية يوجّه طعنة ليس إلى المستوى الفني في العمل الأدبي فقط ولكن إلى قيمته الإنسانية، وبالتالي فإن هذا ينتهي إلى محاولات مذهلة للحديث عن ذلك المزيج المصطنع للدين والعرق بصورة ينطبع فيها العمل الأدبي بطابعين أساسيين هما الشعور بالتفوق والاستعلاء والإصرار على احتقار كل ما هو غير يهودي.

وإن هذا القفز من محور إلى آخر في القصة والتناقض في السياق بالرغم من المعطيات التاريخية التي يفترضها المؤلف، إن هذا كله ناتج عن التناقض الأصلي القائم في الواقع الذي نعيشه، وفنياً أيضاً هو لا يستطيع إكمال قصص على محاورها الحقيقية،

ذلــك أن القضــية ليســت قصــة الراعــي الــتي كتبهــا ل.س يزهــار "السجين" بل هي قصة المرعى.

والقصة ليست المتسابق الذي قتل قبل نهاية الشوط، ولكنها قصة النهر.

ويبقى الأدب الصهيوني عاجزاً عن إكمال القصة موضوعياً وفنياً فوق محورها التاريخي، فهو يخضع للتساؤل والاستفهام، ولكن أمام كل هذا يقف أدب المقاومة العربية لا يتساءل، فهو يعرف طريقه جيداً، وهو واثق إلى أبعد الحدود، مؤمناً بنهايتها إيماناً لا يتطرق إليه الوهن.



❖ **المقطوعة الرابعة – لبوابة الروح:**

١ - الطبيبة.

٢ - لكلٍ وجهة نظر.

٣ - أوبرا الحب.

٤ - حديقة واحدة.

الطبيبة

إهداء إلى كل وزارات الصحة في العالم..

ماعدا وزارة الصحة "الإسرائيلية" لضلوع حكومتها في نقل وباء الإيدز إلى مدينة القاهرة على أساس الحرب بينها وبين العرب.

الطبيــبة

في الصباح كان خده الأيسر على غير ألفته، كبالونٍ نفخه طفل بكل إصرار حتى الشفة العليا منه.

نظر في وجهه في المرآة، فكان ثمة قناع يرتديه ويتنكر به، أو ربما يكون أحدهم جاء من السيرك ليقف هنا أمامه، أو بدلاً عنه.

أغمض عينيه، ثم فتحها ليتأكد مما يكون هذا الشيطان الذي أمامه عاد ثانية لتكرار فتح العنين وإغماضها ، لكن الحقيقة هي بذاتها لم تتبدل ، فأيقن أن ما هو موجود ليس إلا ورما أصاب نصف وجه الأيسر فأخذ يتلمس تلك الطابة بكل تأن ، ورويدا .. ضغط عليها فعسى وربما يخرج الهواء اللعين من داخلها وتستقيم التفاصيل ، إلا أن ذلك زاد في الطنبور نغما ، فبدأت المطارق تهوي في رأسه ، وتسبب له ألما شديدا عصيا على الوصف .

قال في نفسه ربما حبه أسبرين أضعها عند الضرس .. ففعل، ولكن ذلك لم يجد نفعاً، تذكر أن الماء والملح قد يخفف من المطارق ، ولكن أيضاً لم يجد ذلك نفعاً، وتذكر أن أمه كانت تقرأ عليه بعض الآيات، وتسكب الرصاص المصهور فوق الماء

البارد في وعاء يمر فوق رأسه وجسده مع قراءة بعض التعاويذ اللازمة لطرد الشياطين.

فصاح لزوجته أن تفعل ذلك، بعد أن علّمها الطريقة تلك، ففعلت وهي تبتسم له وتقول إنه مجرد ضرس يا مروان.. لماذا تبالغ هكذا، وكأن مصيبة قد ألّمت بك.

أجاب بتثاقل اللسان – لا إنه ليس كذلك.. أنا واثق أنه مرضٌ خطير، وإلا لما كان بمثل هذه القسوة واللعنة.

وماذا تعتقد إذن.

ربما يكون من ذاك المرض الخطير الذي يسمونه بالسرطان.. أو الأيدز مثلاً؟!

سامحك الله يا رجل فالإيدز من أين سيأتيك، إلا إذا كنت قد قاربت امرأة غيري وكانت مصابة.

نعم.. لا والله لا أعرف امرأة في حياتي غيرك.. ووالله إذا كان هذا هو الأيدز لأقتلك بأبشع شكل عرفته البشرية.

هدئ من روعك يا رجل.. واصبر قليلاً للمساء حتى تفتح أبواب العيادات الطبية، فلا داعي للذهاب إلى المستشفى، فالأمر ليس بهذه الخطورة.

خطـر ببالـه أن المـاء البـارد قـد يخفـف مـن المطـارق، فـنهض كـالعفريت مسرعاً إلى الحمّام على الـرغم مـن أن فصـل الشـتاء لـم يلملم أيامه الأخيرة بعد.

وصار يرتجف تحت دش الماء البارد، وهو يقفز كالمعتوه يصدر أصواتاً تشبه تلك أصوات القرود عندما تكون مذعورة.

خـرج مـن الحمـام وهـو يضـع المنشـفة علـى رأسـه، وعلـى قسـمه العلوي من جسده، بينما تصبب المـاء علـى الأرض كسـحابة صيف موسمية أدلت بدلوها فجأة بكل غزارة.

صاحت به زوجته عندليب – يا رجل معقول هذا الـذي يحصـل، أيـة طينـة أنـت، مـاذا نفعـل؟!! بلّـلت الأرض والسـجاد، وسـتزلـج قـدم ابنتـك وتقـع بسـببك.. مـا بـك يـا أخـي.. إذهـب إلى الشـيطان.. إلى المستشفى.. إلى أية جهة كانت، فربما يخف عليك الألم.

سأذهب للسماء .. إلى أقاصـي الأرض، لكـن واللّه... وواللّه إذا كان هذا هو الأيدز...

إذهب من هنا .. ولا تأتي حتى تعرف ما مصابك، كفاك هذراً كالمجانين.

طـرق البـاب خلفـه بقـوة حتـى ارتعشـت فـرائص طفلتهمـا عـلا، وهي واجمة لا تدري ما يحصل في هذا البيت منذ الصباح.



المطارق لازالت تمارس نشاطها بكل رتابة مؤلمة، بينما أقدامه هبطت إلى الشارع مسرعة مرتبكة من غير وجهة محددة لسيرها بينما عيناه كانت يقظتان كعين قط جائع، فنظر إلى عرض الطريق، وإذا بالسيارات كأنها سفناً من غير مجاذيف تسير في نهر من البنزين.

كل الأشياء الصغيرة والكبيرة صارت تعني له أشياءً مبهمة يختلط فيها الواقع مع الخيال.. فتكف أحياناً المطارق قليلاً لكي تعمل فيما بعد، وهو يحاول أن يبعدها عنه من خلال ذلك، حيث تذكر قولاً لجدته "إن الكذبة تبعد الحزقة والألم".

وهو يسير على أرصفة الشوارع كان يقرأ أسماء المحال التجارية ولوحات الإعلان هنا وهناك.. وأسماء الأطباء والمهندسين، وكان لا يحفظ منهما حرفاً واحداً.. حتى أنه لم يكن ينظر إلى المارة من حوله رغم الازدحام قليلاً، ولكنه كان يتحرك وكأنه ضمن هيولى بشرية لا يعرف إلا بالغريزة كيف يتدبر أمر انزلاقه بين فراغات مسموح بها بين البشر.

والمطارق لازالت برتابتها القاتلة التي تقض سكينة العقل الجالس في صومعة من الصلد، فتهب فيه شعوراً بالهلع يصل حتى مرحلة اليأس والقنوط من أن النهاية وشيكة أن تزف هذا الجسد إلى لحده الأخير.

أوقفه أحد المارة من معارفه وهو يصافحه عنوة ويقبله بكل إصرار المحبة، فمنذ فترة طويلة لم يره.. جامله قليلاً على أمل الخلاص منه والذهاب إلى حيث اللّه، وكل الأشياء، لكن هذا الضيف العابر لا يدري طبعاً بشيء، فسأله عن عائلته؟؟ وعن أحواله.. وعن العمل والأصدقاء .. وفلان من المعارف والأصدقاء القدامى.. بينما هو يتلوى ويجيب بنعم أو جيد.. أو يطأطئ رأسه قليلاً.. وفي نفسه يقول - كان من العبث أن تتألم والدتك وهي في المخاض لتلد معتوه مثلك.

وبعد ذلك طرح عليه اقتراحاً بالسهر هذه الليلة عند بعض الأصدقاء للعب في الورق، أو أن يتشرفا هو وزوجته بزيارة لعنده حيث أن زوجته اشتاقت لزوجته كثيراً.

نظر مروان إلى ساعة يده، واعتذر لأن الوقت داركه وهو يضع يده على خده مخفياً ألمه.. ومنظره المروع، ومن غير أن يسمع الإجابة على أية كلمة تركه وهو يسير مسرعاً عجولاً، جعلت صديقه يحتار في أمره مشدوهاً وهو ينظر إليه حتى وعن بعد طيف يميل باتجاه اليمين أو اليسار شاقاً طريقه للأمام.. ففتح كفيه وهو يرسم علامة الحيرة المدهشة على شفتيه.



خطـر في بـال مـروان أن يـذهب إلى الحديقـة، فربمـا تخفـف المطـارق مـن عملـها قلـيلاً، ويقضـي مـن الوقـت كـثيراً حتـى تفـتح العيادات الطبية أبوابها.

وفعلاً ساقته قدماه إلى حديقة في وسط المدينة تعرشها أشجار الكينـا الشـامخة للأعلـى، وتمـد أذرعهـا بكـل اتجاهـات السـماء ترخـي تحتهـا ظـلاً تفـوح منـه بدايـة فصـل الربيـع، كـذلك أشـجار الصنوبر دائمة الخضرة، وقليلاً من أشجار السرو التي تحصنت بهـا الحديقـة علـى أطرافهـا، وفي الوسـط كانـت أشـجار النخيـل ضـمن دوائر عشبية خضراء يحيط بهـا رصيف دائـري مرصوف بالحجـارة الملساء تقبع عليـه مقاعـد خشبية متباعـدة عـن بعضـها البعض، وفي الحديقة عدة دوائر مثيلات لبعضهن، وجميعهن تطل على بحرة مـاء زرقـاء واسـعة مـن صـنع الإنسـان يوجـد بهـا نـوافير مـاء تكـون ملونـة عند المساء، وتحيط بهذه البحرة وعلى امتداد أكثر من ثلاثة أمتـار حقلاً دائرياً من الورد المختلفة ألوانه.

فـأول مـا وقـع نظـر مـروان عليهـا، بعـد أن اختـار مقعـداً خشـبياً ملائماً لرصد الجزء الكبير مـن الحديقـة، فأعجبـه الجمـال الإلهـي الـذي يتجلـى في أعظـم لوحـة مختـارة مـن الألـوان، والأشـكال الرشـيقة، فـاقترب منهـا بينمـا خفـت المطـارق قليـلاً عـن العمـل، وإذ هـي مرتبة هندسياً بصفوف ننظاميـة، فقـال مـع نفسـه ليتهـا كانـت

عشوائية أينما حبّت وشاءت أن تعيش.. وتساءل حتى الإنسان يتدخل بالورود ليجعل منها جيشاً أو مدرسة.

انحنى لكي يشم رائحة شذاها ، فلم يعثر ولا على أية رائحة فعادت المطارق إلى رأسه، وهو يقول - حتى من غير رائحة؟!!

عاد إلى مقعده وهو يتأمل الأشجار الخضراء، بينما كانت النسمات الباردة قليلاً تداعب خده المنتفخ، فيهدأ ويحس هو بالغبطة عند ذلك، ويستبعد من تفكيره أن يكون ذلك هو الأيدز كما يعتقد.

نظر إلى اليمين ليسبر حديقته، أو مكانه وما يحيط به من البشر، فرأى عن بعد ليس بالكثير شاب وفتاة يعتصر الحب حديثهما الذي لم ينته، هكذا دلت إشارات الأيدي وإيماءات الرأس.

وبعد قليل كان يقترب منها ذاك الشاب قليلاً.. فقليلاً حتى صارت قريبة جداً إليه، بينما هي تخفض رأسها وينسدل شعرها الكستنائي أمام عينيها ، لتعيده ثانية وترمق من تحب ببريق الحب الذي توهج عن بعد وكأنه وميض الحب يشعل برقاً في قلبين تحابا.. فأمطرت سماؤهما وابلاً يحرق الخلايا العطشى من أجل أسرة جديدة فيها ربيع الحياة.

كفّت المطارق نهائياً عن العمل.. وتذكر عندما كان ولوهاً بها قبيل الزواج، كيفَ كان لا يشعر بالزمن عند اللقاء.. فتنفس الصعداء وقال.. إنها مرحلة جميلة وأعذب ما فيها أنها تلبسك ثوب الجنة الإلهية.

مال برأسه تجاه اليسار ليرى إن كان أيضاً مثل هذا المشهد الممتع، وإذ برجلٍ في الأربعين من عمره وإمرأة تصغره ربما بخمسة أعوام أو أقل، أو أكثر وكل منهما يجلس على طرفي مقعد عيناهما سارحتان في أفق غير واضح المعالم.. ربما متزوجان منذ فترة بعيدة، وانتهى حديث الحب بينهما، وكل شيء صار معروف بالنسبة للآخر، وربما قبل أن يتكلم أحدهما يعرف الآخر ماذا يريد أو ماذا يقصد، فعادت المطارق إلى رأس مروان، وتذكر حينها أيضاً نفسه على الرغم من أنها بضعة سنوات زواج ليس أكثر.

وهب فزعاً من الحديقة تقوده قدماه إلى شوارع مزدحمة حيث أصوات السيارات والباعة .



على امتداد الشارع الرئيسي، وعند انعطاف الشارع قليلاً نحو اليسار، كانت تبدو سينما تضع صوراً كبيرة على واجهتها ملونة بلون أحمر يضفي على بقية الألوان الإثارة والبهجة، فتقدم إليها، وهو ينظر للساعة ويقول.. هنا مقتل الزمن.

وعندما صار قريباً منها ، وإذ بتلك الصور هي لفتيات جميلات تظهرن سيقاناً بديعة ، وكأنها منحوتة على يد نحّات ماهر، أو مرسومة بخفة ودراية ، أيضاً على شفاههن الممتلئة تلوح ضحكات أنثوية أظهرت لآلئ ثمينة من بحر الشبق الجنسي الملتاع حرقة وتأوه وللمزيد من يطفئ ناره.

ذهبت المطارق نهائياً ، وكفت عن العمل، ولاح على وجه مروان ابتسامة عذبة لكنه تأسف قليلاً لأن الفيلم كان قد بدأ منذ ربع ساعة ، فواسى نفسه وقال - سأعود ثانية لحضور ما ضاع مني على مشاهدته.

ودلف القاعة حيث كانت مظلمة ، لا يبدو من حلكة سوادها إلا القبلات في غرفة بضوء خافت يشع رحيقها انعكاساً للنور القليل الذي يجعلك تميز بين الممر الرئيسي والمقاعد.

فأخذت يداه تتلمس معبراً بين الصفوف المتوازية ، وعيناه لا تبرح النظر إلى الشاشة حتى يضيع عليه أي مشهد ما.

وفعلاً تمكن من الولوج في أحد هذه الصفوف، ليجلس عن غير هدىً وهو يتلمس المقعد ، وإذ هو فارغ حقاً من محتواه، فجلس كرجل آلي ببطء شديد ، وعيناه لا تزال مسمّرة على شاب وفتاة يتعانقا بوهج الحب والإثارة ، ويعتصر صدرها صدره العاريين إلا من خفقات القلب، ثم خف الضوء أكثر لتكون المناظر أكثر

جاذبية، وفيها من الحرقة ما يجعلك تبتلع رضابك الذي بدأ يسيل في أعماق الروح.

أضاءت الشاشة القاعة بسبب الانتقال إلى مشهد بحري، حيث الشمس في صفحة السماء، وأمواج شبه هادئة كانت تحتضن عروس البحر حيث يظهر وجهها الملاك، وتبرق عيناها عاكسة لون زرقة البحر بين أهدابها التي بللتها قطرات ماءٍ وكأنها الندى على أطراف حقل سنابله معقوفة نحو الشمس، بينما شفاها فقد غمرتهما الماء أحياناً، لتظهر وكأنها سمكة من عنقها حتى أخمص قدميها، حتى أن يداها البيضاء كانت تشبه زعانف عروس البحر.

أراد أن يعرف مروان من الذي بجانبه، فكأنه أحس أن ثمة من يجلس بالقرب منه، فأدار وجهه ليجد أن امرأة هنا وبجانبه تماماً.

أحس للوهلة الأولى بالغبطة تملأ روحه حتى وإن كان ليس في الأمر شيئاً إنما سيزيده ذلك شعوراً برطوبة المكان وخصوبة الروح والنفس، لتعود اللحظات المتتالية وهي مرتبطة بأحداث معينة تؤلف عماد الفيلم، لكن مروان كان يتوق لانتهاء الأحداث العادية، ومشادات الشخوص الممثلين الذين يُظهرون براعة في نقل قصة ما على الشاشة، وكأنها الحقيقة بعينها في الواقع، فهو ينتظر أن تعود تلك الحسناوات والشقراوات اللواتي غمرن قلبه فرحاً وسعادة

مفرطة أزالت كل الألم من رأسه، وعطلت حتى المطارق نهائياً عن العمل، لا بل قال مع نفسه – أعتقد أنني لست بحاجة إلى طبيب، وسأكون بعد خروجي من السينما على مايرام .. وتذكر أيضاً بأنه يجب أن يعود ثانية لحضور ما ضاع عليه من بداية الفيلم، ويعيد النظر بتمعن أكثر لما شاهده اليوم.

تمدد مرسلاً رجليه إلى أقصى الأمام، وهو يضع رأسه على حافة المقعد، لتبدأ من جديد حواسه الملتهبة تتفحص كل خلية من خلايا الحسناوات، وكل حركة من حركات الإثارة وعيناه تتفرسان بجمود أصابها وكأنه المس الجنوني الحافل بكل معاني كسر العادات والتقاليد وإطلاق العناق للروح الجامحة نحو اللذة الشبقة.

فجأة، شعر أن شيئاً يقترب من رجله اليمنى، ولكن في جهة المرأة، فقال مع نفسه - يا لهذه المتعة التي وهبني الله بها اليوم، فربما ضارة نافعة.. كنت بماذا.. لأجد نفسي بماذا؟؟!!

ازدادت حركة رجل المرأة باتجاه رجله، فزاد هو من الضغط عليها قليلاً، لتبدأ الركبتين بالانصهار في أتون الارتعاش الأول، فأغمض عينيه وهو يبحر في عالم لا متناهي من الخيال الجميل –رائع النشوة مختزلاً فرحة العمر بلحظات قد لا تتكرر.

وقال مع نفسه - على كل حال سأعود وأحضر الفيلم مرة ثانية وظل مغلقاً مقلتيه يهيم في غرف النوم التي شاهدها منذ قليل،

والركبتين لازالتا تعتصرا لهيب الخيال الأحمر المتدفق مع شرايين الرعشة الوجودية الأولى.

وأحياناً كانت ترمق عيناه قليلاً شاشة السينما، فكان يرخي سدولهما عندما لا تعجبه المناظر المطلوبة، وإن أعجبته يحدق قليلاً بها ثم يسترسل في حلم أعمق وأعمق حتى غياهب الروح.

لم يعد يدري كيف امتدت يده إلى يدها، وبرفق الحب بدأ يتلمس نعومتها، وهي تبادله بجرأة أكثر حركات مهووسة وكأنها المضاجعة في حديث الأصابع المتشابكة التي اعتصرت نفسها للحظات معينة بدفء الإثارة الجامحة، لا بل شاطرته الضغط على كتفه عندما مال إليها قليلاً، وأحسا سوياً بوجود عالم بلا خرائط حقيقي الوجود.

هكذا حتى انتهى الفيلم، وقبل أن تضاء القاعة جيداً بدقائق قليلة حسّن كل منهما وكأن لاشيء قد حصل، حيث أخذ كل منهما هيبته المستقلة، وقطب هو حاجبيه معلناً أن الأمور تسير بجدية، وأنه ليس من داعٍ لقلق أحد ما من المحيطين به للنيل من تصرف ما قد يكون أخل بالآداب العامة.

بهرت عينا مروان من الضوء المفاجئ الذي أعقبه وقوف جميع الحاضرين تأهباً للخروج كنهر راكد يسير ببطء شديد نحو الباب الخلفي للخروج، لكنه كان لزاماً عليه أن يرمق تلك المرأة

التي كانت بجانبه ولو للحظة واحدة، فقدم رأسه متصنعاً حركة لا إرادية ولمحت عيناه صورة وجهها.. ويا للهول.. ويا للمصائب التي لا يمكن احتمالها، فالمرأة كانت عبارة عن سيدة بعمر والدته، بجانبها رجل كبير السن من عمر والده أو أكثر.

بدأت حينها المطارق تعمل.. وبقوة أعنف تهز ركائز العقل وتذكره بأنه لابد حتماً من أن الأيدز هو الذي أوقفها أثناء عرض الفيلم، وهو الآن يعطيها الأوامر بالعمل.

لم يكن يعرف كيف يسير بين جموع الناس بسرعة، فصار الوقت لديه يحسب بأقل من أجزاء الثانية، فطال عليه الانتظار من أجل التقدم نحو الباب، والخروج إلى الشارع حيث السماء.. والهواء والانعتاق من هذا الألم الذي التهم كل السعادة الزائفة التي كان قد أحس بها.

فبدأ يميل يميناً ويساراً بين هيولى الخلايا الآدمية حتى تمكن من فتح ترعة يصب ماءها في بحر الشمس على الرصيف المواجه لحركة السفن العائمة في نهر من البنزين، ولكن من غير مجاديف.



المدخل المؤدي إلى باب عيادة الدكتور منال، يبدو أنه لازال يتعشق رائحة الرطوبة مختلطة برائحة الأدوية، وأهمها البنج حيث تفوح سريعة الانتشار داخل جهاز الشم، مما يوحي لك بأنك قادم إلى مستشفى وليس عيادة مثل هذه ، لكن لا تلبث أن تكون أمام

الباب المفتوح على مصراعيه يستقبلك من غير إذن مسبق صالون بطول ستة أمتار تقريباً ، وبعرض أربعة أمتار فقط، يتوزع على كل منها مجموعة من المجلات القديمة والحديثة ذات الاختصاص والصلة بعالم الطب والمعرفة.

أما في الصدارة وإلى اليسار من باب الغرفة الداخلية، غرفة المعاينة والعلاج حيث بها الدكتورة، كانت تجلس السكرتيرة خلف طاولة صغيرة الحجم عليها جهاز هاتف ودفتر ومجموعة أقلام.

دخل في البداية كلص يترقب المكان قبل ولوجه، ومن ثم اصطنع شيئاً من التوزان، ونظر للتعرف على من في المكان، وإذ برجل عجوز، وامرأة وطفلها ، وشاب وفتاتان ينتظران دورهما ، بينما تلك السكرتيرة التي تجلس في الصدارة فقد ابتسمت له بالتحية، وكأنها تدعوه للاقتراب، وفعلاً هذا ما حصل، لكن ما إن وصل إليها حتى وضع يده على خده الأيسر، وقال لها أرجوك أنا في حالة خطيرة، ويجب أن أدخل فوراً.. اعتبري الأمر حالة إسعافية، لا أستطيع الانتظار لحظة واحدة من فضلك. أجابت - انتظر هنا قليلاً حتى أكلم الدكتورة.

وبعد قليل خرجت السكرتيرة من الداخل، وأومأت له بالدخول.. وعندما صار داخلاً تسمرت عيناه في بحر عيون الطبيبة التي كانت بلون السماء تترقرق صفاءً لا لبس فيه.
قالت – ما الأمر؟

أجاب – لا أدري يا دكتورة من فضلك، هل هو مجرد ضرس، أم أنه مرض خبيث، أو مثلاً الأيدز.

ضحكت الدكتورة بملء قلبها، وهي تسند رأسها حتى لا يقع أرضاً، وانسدل شعرها الأشقر الناعم الذي تكتنفه بعض الخصل القريبة من السواد على وجهها، فترفع رأسها وتقول - ماذا قلت أيدز..وهي تضحك من كل جوارحها.. هكذا حتى هدأت قليلاً وأخذت نفساً عميقاً.. بينما هو ارتعش لهذا الملاك العظيم، وغابت المطارق عن رأسه نهائيا، وكأنه تعالج وانتهى الأمر.

قالت - اجلس هنا على هذا المقعد يا أبو الأيدز..وأردفت..يعني هذا أن لك علاقات نسائية كثيرة، ومن أجل ذلك أنت متوجس بهذا المرض.

أجاب - لا والله صدقيني لا أعرف غير زوجتي، لكن من كثرة الحديث عنه في التلفزيون والراديو .. والصحافة.. والندوات الطبية صرت فعلاً أتوجس منه.

الدكتورة - لا عليك أبداً أي من أعراض هذا المرض، لكن إرخي رأسك على مخدة الكرسي، وافتح فاك واسعاً.

أدخلت قطعة خشبية، وهي تقرب الضوء الخاص المتعلق بمقعد المعاينة نحو فمه، وإذ هي عثرت على مكان الألم الحقيقي، فكان ضرساً متسوساً قارب على التلاشي وهو في حالة التهابية.

فقالت – إنه مجرد ضرس يا أبو الأيدز، وما علينا إلا أن نقلعه ونرميه في القمامة، ولذلك سأحقنك الآن بإبرة بنج، وبعدها تنتظر في الصالون ربع ساعة، ومن ثم يبدأ عملنا.

كاد أن يقول لها بأنه ليس بحاجة إلى البنج، فأنت كافية حتى ينسى المرء كل آلامه، وتمتم.. إنها فعلاً ملاك الرحمة.

قالت - ماذا تقول؟!

أجاب - لاشيء.. لاشيء، ولكن أستطيع أن أتحمل الألم بضعة دقائق من غير بنج.

الدكتورة - مستحيل، ثم هكذا أصول قلع الضرس.

في الصالون لم يجلس بل كان يروح ويأتي، واضعاً يده على خده من غير وجود المطارق، بينما كان تفكيره يذهب للبعيد.. ويتأمل ما تحتويه هذه المرأة من جمال آخاذ، ولطف لم يسبق أن رآه في وجه امرأة منذ بدء معرفته للمرأة، وفي كل حين ينظر إلى الساعة علَّ الوقت ينتهي ليدخل ويتأمل بها جيداً، وقد نسي كل المطارق والضرس.. والأيدز.

دخل إلى الغرفة، فأشارت له بأن يجلس على مقعد المعاينة، واقتربت منه وهي تحمل بيدها أدوات طبية لازمة لهذا الغرض، وبشكل تلقائي أرى رأسه على مخدة المقعد، وفتح

شـدقيه علـى وسـعيهما.. بينمـا سـرحت عينـاه تـارة في عيونهـا أو إلى خصلات شعرها الناعم.. فهبط قليلاً عنـد الرقبـة وظل يتابعهـا وهـو يهـبط.. وإذا هـي الزرافـة لا بعـدت.. ولا قربـت.. رقبـة ناعمـة شـفافة طويلة بلون وردي مائل لورد الجوري.

قال في نفسه - يا إله.. يا إله ماذا هنا.. وما الذي يحصل؟؟!!

هـي بـدأت عملـها منشـغلة غـير عارفـة مـاذا يـدور في رأس هـذا المريض، لا بل أحياناً كانت تحتك فيه من غير انتباه، لكنـه المس الكهربـائي شـديد التـوتر، فلـم يتـألم، ولم يظهـر عليـه أنـه يقلـع ضرسـاً، حتـى ولـو أنـه أخـذ حقنـة بـنج، حتـى أثـار ذلـك سـؤالاً مـن الدكتورة فقالت - معقول أنك لا تحس بأي ألم، إنه لغريب أمرك؟!

أجاب مع نفسه - أنت البنج يا دكتورة.

وهي لازالت تعاقب هذا الضرس.. مالت قليلاً منحنية تنظر إليه بدقـة أكثـر، وإذ ظهـر إليـه تحـت الرقبـة شـاطئ لازوردي تعانقـه الأمواج اللدنة التي تهتز وكأنها من الطمي الأبيض الناصـع.. رفض الترسب عند الشاطئ.

فهرعـت روحـه إلى طيـور البحـر تريـد أن تعاونهـا علـى اصـطياد شيء، ولو كان قليلاً.. قليلاً.

خلصت الدكتورة من عملها ، وغسلت يداها ، وكتبت له عن اسم الدواء اللازم، وابتسمت إليه، وقالت - إذا كنت تخاف من الغول فسيأتيك .. تفضل حبة كل ست ساعات.



اتجهت أقدامه إلى البيت، وهو يردد .. إذا كنت تخاف من الغول سيأتيك.. إذا كنت سيأتيك.. سيأتيك.. ثم صرخ جهاراً – وكيف سيأتي ؟!!

ومع نفسه قال - لكن فعلاً هذه الدكتورة تستحق أن يغامر الواحد بنفسه حتى ولو كان هناك أيدز .. ثم يضحك.. وأحياناً يتوجم مطرقاً بالتفكير بأشياء سخيفة.

لم يدر إلا وقد صار واقفاً على الباب، فنام برأسه على جر س الحائط حتى صرخت عندليب زوجته من الداخل..نعم.. نعم.. ها أنذا قادمة.. انتظر ..من على الباب.

فتحت وخيل إليها أن ثمة مكروه ما..وإذ هو يقف أمامها يحدقها بعينين ذابلتين واهنتين منكسرتين.

قالت - إن شاء الله ما كان معك مرض الإيدز؟؟

قالت طفلتهما علا - يا بابا .. يا بابا شو يعني إز..

أجاب - الزاي.. الزاي.. أوصفلك يا حبيبي الزاي.

حمل طفلته ودخل إلى منزله.



في كل يوم، وعند الصعود إلى شقته التي في الطابق الثاني، كانت امرأة جميلة ممشوقة القوام تفتح الباب متذرعة بأي عمل تقوم به، وتحاول بشكل مقصود أن تظهر بعضاً من مفاتنها على أساس أنها لم تنتبه، فتتدارك هي الأمر، وكأنها توحي له بشيء ما.

عرف عنها من خلال السؤال أنها أرملة منذ عدة سنوات، ولها ولد وبنت قبل سن البلوغ، وبعد سن الطفولة.

هكذا حتى صار بينهما صباح الخير.. مرحباً.. السلام عليكم .. الله يعطيك العافية، وتعمقت المعرفة شيئاً فشيئاً حتى صار كل منهما مألوفاً للأمر.

في يوم من الأيام، وهو نازلٌ إلى عمله طلبت منه أن يُركِّبَ لها جرة الغاز، فدخل إلى مطبخها وفعل ذلك، وأثناء خروجه قالت له - معقول أن لا تشرب فنجاناً من القهوة، فأنت جارنا ومثل أخي تماماً.

فهز برأسه خجلاً أنه موفق، وجلس على أريكة جانبية في الصالون، وقريبة من الباب الرئيسي.

جاءت إليه بعد قليل، وهي تحمل صينية القهوة، وعليها فنجانان يتصاعد منهما بخاراً يتراقص مع حركتها تفوح منه رائحة القهوة المهيَلة جيداً.. بينما كان صدرها يعلن صراحة عن نصفه

على الأقل، ودار الحديث عن مختلف الأمور البسيطة، وقبل أن يخرج دعاها إلى بيته، وطلب منها التعرف على زوجته.

في العمل بدأ يفكر بها ويقول - إنها ناعمة جداً ورشيقة.. لا بل حديثها فيه من الإثارة ما لا يوصف.. كذلك ضحكتها وعذوبة شفتيها.. يا إلهي ما أروع هذه المرأة.

في الأيام التي تلت هذه الحادثة صارت أم بلال صديقة عندليب، ففي كل يوم تأتي أو تلك تذهب إليها.. وتقريباً حصل وحدة حال بينهما.. لا بل عندليب زوجة مروان تدافع عن أم بلال بقوة عندما يحاول مروان أن يجس نبض الغيرة عند زوجته.. بأن يقول لها - ليس من المعقول كل يوم.. كل يوم.. ألا يوجد إجازة.. إنها امرأة ثقيلة الدم.

تجيب عندليب - بالعكس تماماً إنها امرأة جيدة ومسلية، وكذلك مخلصة، وتتفهم أي شيء، ولم أجد في البناية هذه أفضل منها.

جميع النسوة هنا يثرن الشغب، ومشاكل نقل الحديث، والخلافات التي لا طعم لها.. بينما هذه منزوية على حالها، وأيضاً هي تحبني كثيراً.



كان مروان يبتسم لأم بلال خلسة، وهي كذلك، وحتى أنها في الفترة الأخيرة لم تعد تأبه بأن تغطي صدرها منه، أو تلف

ساقيها بمعطف النوم المفتوح، وزوجته لم تكن تنتبه لذلك لأنها أيضاً كانت أم بلال حريصة بأن لا تجرح مشاعر صديقتها، فهي تغتنم الفرص الكثيرة التي كانا يلتقيان بها بالصدفة.. مثلاً وهي ذاهبة إلى المطبخ أو هي منحنية تكنس الأرض، حتى أنه في إحدى المرات كانت عندليب تستحم، وأم بلال كانت تطوي الملابس لجارتها في غرفة النوم، وبينما هو يمر من أمام الباب ظهر إليه ساقها منكشفاً وهي جالسة الأرض، فعاد ثانية متعمداً ليتأمل أكثر من ذلك، وإذ هي كأنها لم تنتبه له إطلاقاً خلعت قميص نومها، ووقفت عارية إلا من ملابسها الداخلية، وهي تحاول أن تقيس فستاناً على أساس أنها في البيت لوحدها مع عندليب والأولاد يلعبون قبالة البناية.

هنا شمّر مروان عن روحه الظمئة، وتسمر في أرضه جامداً.. لا حراك فيه.. فأدارت وجهها إليه وابتسمت دون اكتراث، ولبست الفستان جيداً، ثم خلعته وهو لا زال واقفاً، لتلبس قميص نومها وهي تبتسم له، وإذ بصوت عندليب ينادي من الحمام تريد ملابسها.. فهبت إليها وأعطتها ما تريد.. وجلسا في الصالون من غير رسمية معتادة.

في يوم ما من أيام الصيف، حيث كانت الحرارة شديدة الارتفاع، دخل مروان إلى شقته وإذ برسالة من زوجته تقول فيها -

أنها زائرة اليوم عند أهلها مع علا، ويجب عليك أن تأخذنا مساءً، ولكن مبكراً وإياك أن تسهر الليلة عند أحد، فخلع ملابسه، واستحم بالماء البارد.. ولبس شورتاً قصيراً وتمدد بجانب المروحة في الصالون، بعد أن وضع وسادة على الأرض، حيث كان بلاطها يشع بالبرودة.

وقبل أن تغفو عيناه، وهو يسرح في أمر هذه المرأة.. وإذ بالجرس، فهرع إلى الباب بسرعة، ودون أن يقول من هناك فتح الباب، وإذ هي تقف كحورية البحر أمامه.

قال - تفضلي.. أهلاً .. أهلا..

قالت - أين عندليب؟؟

قال - عند أهلها اليوم، كتبت لي رسالة تقول ذلك.

قالت - لا..لا بإمكانك الذهاب إلى النوم إذن.

أجاب بسرعة متوترة - أشعر بالملل، وحاولت النوم فلم أستطع، ويستحسن أن تعملي القهوة، وندخن سيجارة، ومن ثم تذهبين.

قالت - حاضر يا بيه، وقليلاً سآتيك بفنجان القهوة.

وفعلاً أتت بالقهوة، وثلاثة أرباح الصدر كان يدفق كشلال من على غابة كستنائية ناعمة تحتضن رأسها وعيناها الخضراوين.

جلست قبالته، وهي ترشف القهوة بعد أن أشعلت سيجارتها، وهي تعب منها بكثافة النشوة والإثارة، وكانت تضع ساقاً على ساق حيث تكشف ما فوق الركبة بكثير، وانزاحت تنورتها إلى الأعلى وهي تبدل وضعية ساقيها من أجل ذلك.

وهو يتفرس بها، لا يعرف كيف يبدأ الحديث، وكيف ينطق ببنت شفة، حتى هي أسعفت الموقف وقالت - هل تعلم يا مروان أن هناك حادثة حصلت معي منذ مدة بعيدة، يعني ربما أربع سنوات، أو أقل من ذلك.. ولازالت هذه الحادثة تؤرقني، وتؤلمني كثيراً حتى هذا اليوم.

فاقترب منها على أريكتها، وقال لها - وما هذه الحكاية، وهو يسند يده خلف رأسها على حافة الأريكة.

قالت - في يوم من أيام الصيف الحار مثل هذه الأيام، دخلت على بيت صديقتي، فلم تكن في البيت بل كان زوجها لوحده.

فقال يهز برأسه ويرمق بعينيه إلى صدرها - وماذا بعد؟؟

قالت - دخلت مثلما دخلت أنا إلى هنا.. وبدأنا نشرب القهوة وندخن السجائر.

وماذا بعد؟؟

اقترب مني كثيراً حتى صار ملاصقاً لي.

فاقترب مروان منها حتى صار ملاصقاً بها.. وهو يقول - وماذا بعد؟؟

وضع يده على يدي.. وبدأ يقبلني بإثارة مجنونة.

ومباشرة صار مروان يقبلها بإثارة أكثر جنوناً، وهو يقول - وماذا بعد؟؟

خلع بيديه ملابسي.

وفعلاً مد يده إلى أطراف ملابسها، وخلعها بالكامل، وهو يقول - وماذا بعد؟؟

نام معي حتى الثمالة.

وفعلاً نام معها حتى الثمالة، ولكن لم يعد يقول وماذا بعد.

بل هي قالت - ألا تريد أن تعرف، وماذا بعد؟؟

وهل بقي شيء أكثر من ذلك.

نعم، فقد اكتشفت أنه يحمل مرض الإيدز.

فصاح بها، وصوته كاد يهدم أركان البناء.. ولماذا.. ولماذا لا تقولين من قبل يا حقيرة.. يا عاهرة - ساقطة – ابنة حرام.

خرجت من الشقة وهي تبتسم له، وتقول حتى يكون لديّ أصدقاء أتونس بهم.



تحولت حياة مروان إلى جحيم لا يطاق، وظل يردد .. من يخاف من الغول سيأتيه.. نعم سيأتيه.. وها هو قد أتى.

ابتعد عن زوجته، ولم يعد يقربها، حتى لم يعد يقبل طفلته، على الرغم أن القبلات غير معدية، فكان يخاف عليها كثيراً.

اشترى من الكتب الكثير حول هذا الموضوع، وبقي كذلك عدة أسابيع، حتى انهارت أعصابه تماماً، ولزم الفراش، وهو دائم التعرق، وأحياناً تأتيه البردية، فيطلب أغطية كثيرة علّها تهمد خلاياه قليلاً.

عرضت زوجته أن تأتيه بالطبيب فكان يرفض بإصرار شديد متذرعاً أن ثمة كريب حاد، وسيفك عنه قريباً، مما أثار في نفس عندليب الحيرة في أمر مروان.. تارة يتوجس من المرض..وتارة غير مكترث.

في يوم صباحي دخلت أم بلال عليه، لتلقي تحية الصباح وتسلم عليه، بعد أن قاطعته طيلة تلك الفترة.. فعندما كان يدخل إلى البيت هي تخرج مباشرة، وهو بالمقابل لا يقدر أن يفعل شيئاً.

في هذا الصباح، وعندما دخلت مبتسمة له، قال لها - أخرجي من هنا، ولا تريني وجهك المريض.

قالت ضاحكة - وهل صدقت ما قلته لك، إنني أداعبك وأمزح معك، فأنا أحب المرح والتسلية، ولا آخذ الدنيا على محل الجد.

قال - صحيح ما تقولينه ؟؟!!

قالت -نعم مئة بالمئة، وخصوصي من أجلك ذهبت اليوم وعملت تحليلاً طبياً لي حتى تتأكد بأني خالية منه تماماً.

فنهض من الفراش، وحمل أم بلال يضع يديه التي هبت بهما القوة للتو تحت أليتها، وهو يدور ويرقص في الغرفة.

وإذ بعندليب تدخل الغرفة، وهي تحمل صينية القهوة، فصعقت لهذا المشهد، ووقعت الصينية والقهوة معاً على الأرض.

عندها استفاق مروان من نومه العميق، والفراش كان مبللاً بالعرق، وكأنه كان يسبح فيه طوال الليل.

بينما عندليب كانت تأتيه مبتسمة تحمل صينية القهوة وتقول - استيقظ يا حبيبي.. لقد تأخرت هذا الصباح قليلاً عن عملك.. تفضل فنجان القهوة.. وأشعلت له السيجارة بتودد.

٢٠٠١

بغداد

« لكل وجهة نظر»

مصادفة، كان يعبر الشارع المؤدي إلى المدينة، قاصداً موقف الباص، أو السرفيس، أو أي تكسي مثلاً إلى الجهة اليمنى منه، وهو يتأبط كتابين، ومجلة فكرية معروفة.

وأثناء عبوره، وقع بصره على فتاة ممشوقة القوام، تقف قبالته، لم يدرك تفاصيل معينة، لكنه أحس أن فتاة جميلة هناك، فحاول في اللحظة الأخيرة تعديل مشيته، فأعطاها شيئاً من الجمالية وعدم الاكتراث، حتى إذا وصل إلى الرصيف، تعمد قاصداً أن يقف بجانبها، وأمعن في وضعية خاصة أنه لم يشاهد شيئاً، وكأن الأمور تسير بشكل طبيعي.

وجاء الباص المقصود، فلم يصعد! رغم أن الطريق لا يحتمل إلا لهذين الخطين.

اضطرب، وأحس بالخجل، وخاطب نفسه:

وهل هي واقفة للأبد هنا.. ربما تنتظر؟ وما شأني بهذه المصيبة التي حلت بي عند هذا الصباح.. الآن لابد أن أستقل أية وسيلة مهما تكن.

وفعلاً، بدأ يرفع يده اليمنى لسيارات الأجرة المتسارعة، وهي تقل بعض غنائمها المنتشرين على طرف الطريق، وبعد كثير من العناء وحركات مسرحية لطيفة، مثل القفز إلى الربع الأول من الشارع، وهو يشير إلى تكسي باتجاه معاكس، أو إظهار الاحتجاج.

بحركات عشوائية بيديه، أو ببعض الزفرات الغاضبة التي تعلوها نفث بخار الماء، وكأنه جاء من فوهة بركان ما في صباح بارد!!.

فجأة، توقفت تكسي على أقل من مهلها، فتح الباب الأمامي، وهو يحاول أن يرمق وجهها لآخر مرة، فعاجلته:

إلى أين طريقك؟

إلى الجامعة

إذا كان طريقك معي فلا مانع.

بعد أن أقلعت السيارة بقليل، حاول مرة ثانية أن يرمق جمالها، وذلك بإمالة رأسه مع منكبيه، وكان قد وجد مبرراً لذلك، عندما سارع القول:

إلى أين تذهبين.

قبل الجامعة بقليل.

أعاد وضعه كما كان، مثل تلميذ منضبط، لا ينقصه إلا أن يكتف يديه.

بعد ثوان قليلة، رفع رأسه وأماله قليلاً، علّه يجدها في المرآة الأمامية التي تقع أمام السائق، لكنه لم يفلح، عاد برأسه إلى وضعه السابق، لينتبه أن هناك مرآة أخرى جانبية تقع خارج السيارة مثبتة على الباب الأمامي، وهي تعكس جانباً من المقعد الخلفي، فأرخى نفسه قليلاً، ومد ساقيه إلى الأمام، حتى استطاع أن يضبط وجهها في المرآة، فبدت إليه كلوحة كلاسيكية، تفاصيل الوجه والعيون شبه عاتمة، تفوح منها رائحة الفن الإلهي ومعجزاته.

فجأة، توقف لو سمحت، ومدت يدها لتعطيه الأجر... فبادر هو لمنع ذلك بطريقة عفوية، وكأنه يعرفها قبلاً!! لكنها أبت ذلك باحتشام العذارى، وبين إصراره وخجلها من هذا الموقف، اضطرت آسفة للرضوخ، غادرا السيارة فوراً، وكأنهما كانا سوية إلى وجهة ما.. متذرعاً بقرب الكلية، بينما هي سارعت إلى التعرف به، مما أربك أوصاله، واضطرب قليلاً، ليتماسك فوراً بردة فعل من أجل تأكيد الذات، عرّف بنفسه وهو قاطب الحاجبين وتقاسيم وجهه تعلوها مسحة من الجدية الصرف.. وأضاف بكلمات قريبة من الفصحى، مع لهجة خاصة مطعمة ببعض المصطلحات المتداولة بين أوساط المثقفين اليساريين: - لا بأس من هذا الصباح.. فرصة

غير عادية أن أتعرف بك – وإذا ما في أي مانع بإمكانك مشاركتي فنجان قهوة في محل بالقرب من هنا - طبعاً بدون أي إحراج - فالأمر بنظري في منتهى العادية – من حق الجنسين التعارف في جو من الكبت وتضييق الحريات الفردية.

هي لم تسمع من هذه الاسطوانة سوى العزيمة على فنجان القهوة، وبدلع أنثوي جميل مع ابتسامة أعقبتها بضحكة خفيفة، قالت: عادي.



الدخان كان يعبق في المكان، وأضواء حمراء خافتة، وموسيقى هادئة جميلة، حتى أنه في اللحظة الأولى، لم ير إلا أشباحاً خلف ضباب ما.. وبعد هنيهات تم التكيف مع الطقس الداخلي، ليصبح المكان أكثر ملاءمة ليعبر العاشق عن مكنوناته الدفينة.

اختار هو طاولة منزوية قليلاً، وأشار لها بيده، وما إن استقرت القعدة حتى جاء النادل، فطلب القهوة، ثم أخرج علبة السجائر الوطنية ووضع فوقها الكبريتة، وأبعد مجموعة الكتب والجريدة إلى شفى الحافة اليسرى باتجاه الحائط وأحسن من قعدته.

نظر إليها، وإذ هي تمايل رأسها يميناً، فسحره هذا الوجه الملائكي المصبوغ بحمرة المكان، وأذهله دلالها الأنثوي المفعم بالشبق.

حدثينا يا شهرزاد.

أنا اسمي...

أعرف..أعرف.. لم أقصد.. هذه دعابة ..

صمت قصير، ولكنه طويل - بادرته:

أي مطرب تحب..

لا أدري، لكن الأغنية الجميلة طبعاً.

هل تحب الغيم

طبعاً.. طبعاً.

أي ممثلة تحب.

لا أدري بالضبط، لكن الممثلة الجيدة، والجميلة بآن.

وأردف بالسؤال:

وأنت ماذا تقرأين

بعض المجلات مثل (الشبكة – الموعد – سيدتي الجميلة..)

ما رأيك بالصراع الطبقي.

لا أفهم.

غريب! والقضية الفلسطينية؟

لا أتدخل بالسياسة.

بعد ذلك حولت هي المجرى الممل في هذه الجلسة الأولى وأدخلته في عوالم خاصة عن مشكلاتها الشخصية التي تعاني منها

مـع الأسـرة، وعـن طلـب يـدها، ومشاكسـتها الظريفـة لأبويهـا ومحاولاتها البحث عن عمل ليشغلها عن هذه المتاعب.

وبينما هي تسترسل في صوتها الأنثوي الناعم كزقزقة عصفور على غصن في أول ربيع، كان هو يذوب كشمعة في أوج احتراقها، ويهز رأسه كنائب في برلمان شرقي؟!

حتـى إذا انتهـت، أشـعلت سـيجارة مـن التبـغ الأجـنبي، بعـد أن مالت قليلاً، ليغطي وجهها الجانبي شلالاً مـن الشـعر الكسـتنائي، فجـاء بريـق عينيهـا خاطفـاً، بينمـا سـحابات التبـغ تمـوج مـن أمـام حدقات الرؤية، وكأنها ساحرة في كهف خرافي، تعطـي أوامرهـا بإيماءات الروح!!

حـدث نفسـه: - إنهـا جميلـة فعـلاً.. مـاذا أقـول الآن؟ بمـاذا أحـدث.. لا أدري.. سـأطلب منهـا علـى الأقـل لقـاء آخـر.. ولكـن في منـزل خـالٍ مـن السـكان، سـأجد حريـة أفضـل في التعـبير عـن مشاعري، هذا الجو هنا لا يناسب لمسة ناعمة طرية على شعرها.. علـى يـدها.. علـى.. علـى.. اسـتفاق ممـن حلمـه، ولا زالـت نظراتهـا الجامدة تتأمل كنصلٍ حاد هذا الزائر الجديد!!

قـال: - إنـي أرى مـن الضـروري أن نتقابـل ونتحـدث، حتـى تكـون بيننـا علاقـة فهـم مشـتركة – سـتكون القاعـدة الأساسـية للحياة القادمة - التي تعبر عن مدى حسن الاختيار لك ولي.

كـان جميلاً وهـو يظهـر مـدى اسـتغراقه بالموضـوع أكثـر مـن المطلوب، وأكثر من ذلك، كان أكثر جمالاً لعفته عن ارتكاب أية حماقة أو تصرف يدل على أنه مراهق وينوي استغلال المشاعر؟؟

أعجبـت مبـدئياً برزانتـه، وتماسـكه، لابـل أعجبـت أكثـر بالكلمات التي لم تفهم من أمرها شيئاً، وأحست أن ثمة غموض يكتنف هذه الشخصية التي تبعث على التفاؤل، لذلك أجابت بسعادة البراءة الأولى:

أين .. متى.. لنذهب الآن.. ما رأيك؟

لا.. لا.. غداً سيكون موعدنا في المكان الذي التقينا فيه صباحاً.. الساعة..

كان يوماً عاصفاً بالأحداث.. رغم أنه حدث واحد فقط!!



ذهب إلى صديق له متزوج، بينهما علاقة حميمة، طلب منه البيت نظيفاً من البشر لمدة ساعة، وشرح له مصيبته الجديدة، وتعلقه بالفتاة.. الملاك الذي هبط فجأة من السماء.

وفي الموعد المحدد، كل شيء على ما يرام، ذهبا سوياً، وأدخل المفتاح مكانه بطريقة تدل على الارتباك، لم يحصل أن قام بهذه العملية الجريئة من قبل؟!

طبعاً كلمات الترحيب، والضيافة، كانت إعانة له على الشحوب في اللوحة الجديدة التي يحاول رسمها عمداً.

غرفة الضيافة، فيها، آلة تسجيل، وبعض الأوراق البيضاء المبعثرة هنا، ومجلات هناك، وبعض الأوراق البيضاء الناصعة المتجمعة بشكل متدرج على طاولة في الزاوية اليمنى.

جلست، وهي لازالت تتابع بنظرها كل تفاصيل هذا المكان، حتى أنها لمحت غرفة النوم من بعيد، وكانت في وضع غير مرتب، ولا يوحي ذلك بوجود أسرة نظامية.

دخل الغرفة، وهو يحاول إلغاء التوتر الذي بدا عليه واضحاً، ماذا تشربين:

- قهوة، شاي؟

أي شيء، لكن أسمعنا موسيقى.

فوراً حاول نبش أشرطة التسجيل، وهو يسأل، ماذا تسمعين؟

جورج وسوف، فور إم، حميد الشاعر.. أي شيء.

وبعد جهد جهيد قال:

لا يوجد غير الشيخ إمام، مارسيل خليفة، فيروز، محمد عبد الوهاب.

من هؤلاء فيروز إذاً.

جلس في المقعد المجاور لها، وبدأ يحدثها عن مشكلات السكن والتنمية، وعن قضايا العالم الثالث والتحولات الجديدة في العالم، محاولاً أن يظهر لها مقدرته في فهم الحياة، وكذلك محاولة منه أن يضفي على الجو شيئاً من الحرية والأمان.

في هذه الساعة، غابت عن روحه تلك اللحظات التي سربلت في داخله مشاعراً خاصة، عندما التقيا في "الكافتيريا".

أقحم نفسه في تجليات مصطنعة، حاول أن يقول لها "بحبك" أنت "جميلة" .. أنت الإنسانة الوحيدة في حياتي، ولكن لم يستطع.. تصل الكلمة إلى الحلق ليعود ثانية لمضغها!!

يحدث نفسه ثانية: - لماذا لا تحدثني كثيراً.. إنها لا تفهم شيئاً من هذه الحياة.. حسناً ربما في الشعر.. أو القصة.. أو المسرح..لا..لا إن المكتوب واضح من العنوان.. سأبدأ معها كما تفهم هي:

هل كان لك علاقة سابقة؟

نظرت إليه مستفهمة دون كلمة، وأشاحت بوجهها إلى أغنية تبثها آلة التسجيل (وينن.. وينن.. وين صواتن).

ضاق صدره، واحتار بعد أن رشفت آخر ما تبقى في فنجان القهوة – فوضع كفه على كفها - اقترب ليلمس رأسها.. وإذ هي

جامدة كلوح الثلج.. عيناها شاخصتان في مجهول غريب.. تراجع بأدب مبالغ فيه، وبينما هي تعتذر للذهاب – حدد لها موعداً في الغد.. في نفس المكان الذي التقيا فيه أول مرة، فلم تعترض؟!

في اليوم الثاني، انتظر كثيراً في نفس المكان، بعد أن قرر، لكنه لم يكن مضطراً لأن يأخذ أية وسيلة نقل مهما يكن.

لوحة سريالية

بين كلمات « أوبرا الحب »

الحب فينا أطلال ذاكرة.. لم تتلاش رغم عوامل الحت السياسي.. ورغم هوجاء العواصم.. والليالي الباردة تحت سعف الماضي قرب موقد بدائي يُذّكر بالحكايا والحواتيت المناسبة من عمق الغابات وحرية ميثولوجيا الروح على أعتاب الأعمار المنقرضة والتي استمرت.. ترشف من كأس المرارة.. مغارة كانت في عنق جبل أخضر.. واحةً لأسرار بعض الأطفال قبل أن يبدأ الغرب بعثاته الأثرية ليعرف سر وجودنا فيها.

سحر الشرق في ألوانه الغريبة.. متعة في الحزن.. وخديج تعلم بصبر كيف يعود إلى بيت الذاكرة.. وربما توقّع أن الدجاجة الحمراء لازالت ترتع بين البيوت المتفرقة على نثار القمح أو الشعير أو العدس.. الذي تسرب خلسة من أكياس الموسم من على ظهر العربات البدائية.



الحب فينا صغيرة تنده لثدي ارتاع من النداء.. هب كالربيع بعد الشتاء يرقص في حلم متورد فأمطر شتاءً موسمياً أعطى الأشياء أكثر مما تنتظر .. الحب ساقية ضيقة ومتعرجة غير

مألوفة رغم التعايش.. ذاكرة تحمل بعد الماضي ولا تتذكر إلا شرود الروح على دهاليز الطرق وهلام التغيير بعد الزمن المؤقت في تاريخ العمر المحسوب بالأرقام المعتادة.

تمتعت الروح بكل الاختلافات وكأنها ما وراء الأشياء تستتبت الآتي في متعة الماضي.. هنا.. وهناك.. وأخيراً هي قرنفلة رائحتها تبددت مع العصور.. لتصبح شكلاً جميلاً ليس إلا.. ولازالت تصر على البقاء؟!!

متى يبتسم القبض على هارب صغير، يحمل حجراً ويعدو ضمن مخاطر الاحتمال..نتلقى هذا الوجع المبتسم في رؤية صغيرة تصرخ بدمعها.. بابا.. ماما.. تركها الكبار من الفزع.. ونحن نعدو به كسيل امتلأ فرحاً.. من غير سد أو مانعة للخير.. نرتفع معها.. أو يدينا.. ثم نهبط ونقسم بأن للحُبّ شيئاً على الأقل فينا.



رفض معتاد وكأنه الغريزة في صورة طفل أبى إلا أن يتجهم.. وحث غير مقبول حتى.. يبتسم.. صناعة إرادية أفقدت الشراع اختياره مع الريح، وبعد ذلك .. ألقت حمولتها من التوابل وتوجهت السفن نحو الشواطئ الخرافية حيث الجزر العذراء.. وبها تعرّف القبطان على شيء ما من الحقيقة..

على طريق مدرسة.. كانت الفوضى والشغب طريقاً للمعرفة.. تمايل الخالق في أساليب الطرق المؤدية إليه.. فاعتكف عند الصومعة المبينة أمام الريح وانتظر جلاد المدرسة.. فتفتحت أزهاراً وبذوراً خجولة.. وعدت بأنها ستتبت فأحسن الجلاد المعاملة.. وقدم إليها الزمن المتأخر كعهد أخير.. وقبلت.

ولكن بعدها.. العهد صار هواءً بارداً .. ونجم هالي ينظر إلينا بحزن شامت.. بعد انتهاء الزيارة.. بينما صديقنا العمر لازال يشع رائحة الشمس في عنابر الأموات على لوحة أثرية من تراث الماضي.



في ترتيب اعتيادي نسّقت الخلايا عزفها اليومي كما يليق بالحضور على أرض الهواء والشمس والمطر.. وبعفوية الانتماء سجنت روحها لمواطن الرغبة.. وطارت كما يحلو لها كفراشة.

الاعتقاد كان هذه هي الحياة.. ولولا الحياة نفسها لما تبدلت الفكرة حينما كانت الروح مستقرة.. آمنة..تدّعي أنها هكذا تعيش؟!!

في لحظة عابرة توقفت مفاعلات المشاكسة عند خطف العمر الممتد.. حتى تبدد الدوائر في بحيرة الذاكرة القادمة.. فكانت هي الصدمة على الهواء البارد.. الماطر.. المجتمع في أعقاب عواصف الماضي.. وساهم في رفده شيئاً من أنهار آلام المستقبل.

تكونت عرائس الحب في غفلة إذاً.. تقدمت حذرة شاردة تعبر جليد القلب الذي حاول أن يفتر قليلاً بحياء السماء.. ويستعين بأيدي النجاة الهادية من قلب العبث والصخب.. ليتمدد قليلاً مسترخياً رغم حلمه في القاع قريباً من سطح الروية.

اختلاج الروح في عنف اللقاء.. واستدارة عينيها مكثت في لحظة التوقف.. وكأنها الصورة.. وضعت في حقيبة الذاكرة أشياء من هنا.. كأنها الصورة.. تراكضت في أعماق البحيرة.. صوراً مختلفة.

أموات في لحظتها .. أحياء سرمديون.. عشق ملون.. وتائهة بين الحب.. وبين العرف.

رفعت رأسها شامخة من تحت الماء كالغريزة في رحم الأمهات.. فاعتلى الرأس حديثاً غير واضح احتضنه شعر كثيف وعينان تبحث عن السؤال قبل الجواب.

تمهلت .. ريثما يعود لها النطق.. بالأشياء.. تقدمت على أمل في القدرة.. تبعثرت في كل الاتجاهات.. صارت مجموعة من الصور بروح واحدة .. ظنت نفسها الإنسان في وحدته.. اقتربت من نفسها حاولت أن تعيد الصلات القديمة.. وتحولت إلى طائر.. وظنت أن لها جناحاً واحداً على الأقل.. فابتُلعت في ماء ربيعي.. حتى رحل الاعتقاد..كشردقة طفل مع حليب أمه.. لتعاد الكرّة.. والمرة تلو المرة..ولكن في النهاية تنتظم الحياة.

ما العمل .. تيه مخيف.. لا تلبث أن تستقر وتسكن الريح حتى تبدأ العواصف .. جحود يؤذي ملكات بعض المسافرين وبعض القاطنين على قمة جبال الثلج.

وأحاطت بنا الأعداء من كل جانب.. تجمعوا كجيش من غير قائد.. ومستقبلاً تفتحت الوردة.. فتقدموا.. وهباءً تقدموا.. ليتفرقوا من غير حرب.

بينما تكورت هي على نفسها واحتضنت أطرافها.. فصارت بذرة ملساء تنتظر عهد انتاشها مع موعدٍ تم الاتفاق عليه.

اقترب الحب منها.. وأيقظ شيئاً من سباتها المعكر على طرف النهر.. رفع يديها.. برعمين غضين يكسوهما العري الصريح بألوان الحياة..امتدت قليلاً ..رفعت رأسها.. وضمتني حتى احترقت نهايات الروح.. وتلاشينا في أوراق لازالت ترشف حليب الأمهات.. لكنها أجبرت على أن تعانق الموت مع الماء بعد أن انكسر ساقها.. وفقدنا الماضي..!! وعدنا لهاثاً نحاول أن يصل كل منا الآخر، ولكن بقيت المسافة واحدة.



لحب فينا.. حلاوة الطعم النفسي عند متعة الاختلاف في سلم الموسيقا لأغنية مألوفة.. وتصفيق حاد.. وقيام .. وجلوس.. في مدرسة ابتدائية في العهد الأول.. طاعة عمياء.. وسذاجة قرية في بطاح الشرق.. جعلت الحب يترسب قهراً في كل أنحاء انتشار الضوء والماء.



الحب فينا.. وحده الحضور الآتي من الصدفة.. عندما ترتعد فرائص الغريزة الممتدة منذ كان الإله نيوجرسي نصفه حيواناً غير أليف.. يطوف في أعماق الانفصال التدريجي عن غائية الوجود – تستوحش الروح أيام عزلتها.. فتتنفض كحيوان غير ناطق في التعامل مع مدارك لم تتهذب بعد!! ربما في طريق الرقص على نغم آلة بخارية أو حديثة تبدي صخباً شبه مقبول.

الحب فينا شيء يقترب من المأساة.. مفعمة الروح الخالدة .. تنتظر ركباً من الأجيال.. وتتساح تعابير اليقظة على مدركات.. أو مدرجات الوعي المألوف.. لتصبح.. هزيمة التفاؤل في عالم آخر.. وهنا عنوان للقصة صريح دون الدعوة للرأفة بالأشياء وبالمقادير المحسوبة أوزانها.

الحب قنبرة.. وعنبر على الأنهار الكبرى في طريق يخط ثراه على هدي المشوار الماضي المتسامح على عهده في قرى الطين وآثار حوافر الخيل .. في ذي قار..

كل الأشياء صارت ليست لنا.. حتى الماضي.. فصل تعسفي من جامعة رئيس الغابة.. ولازال الاحتجاج على عدالة القضاء يرسم لوحة سريالية وكأنها " مقشة تحاول مع القمامة أن تمارس الحب كدجاجات مع صيصانها اللعوبة قبل مهيض النهار بقليل".



« حديقة واحدة »

دقائق قليلة كافية أحياناً

حتى يكون الانطباع في مكانه.. وأحياناً نـحتاج العمر كله ولا نستفيد .. هكذا رأيي أنا.

نافذة واسعة الطيف تهيب فيك الترجل عبرها نحو قطرات من المطر التي تعانقت بحنو مع أوراق شجرة الكينا العملاقة، التي هي صالةٌ للعصافير المهاجرة من غضب الصيد.

كان يجلس في مقهى لكلية الآداب، ينتظر بعضاً من انصراف الزمن، ليعود ثانية إلى محاضرة ما في قسمه الذي يدرس فيه (علم التاريخ).. أيضاً هي كانت تحتضن كوب الشاي الذي تتطاير منه سحابات متفرقة من بخار ثلجي خجول اللون يغمر وجهه المائل إلى سمرة الأرض برطوبة الندى المتقطر في صباح الربيع المبتدأ بعد هنيهة من قرصنة البرد، فتعطيه عناقاً شعر بحرارة لمساته الناعمة مع برودة الهواء والرذاذ عندما بدأ للتو يتهاوى من الشجرة التي تقف قبالته خلف زجاج النافذة رائق الحرية في التعبير.

على الطاولة كانت علبة السجائر التي وضعها لتذكره دائماً بمعاقرتها كزجاجة في حضنها رحم الإغراء... خاصة عندما يتأمل

حتى ولو مع ذاته الأشياء التي تخصه، والتي لا يعلم بها إلا هو بأدق التفاصيل المعتورّة.

وبدأ شريط باهت اللون يتمايل أمام حديقة الذاكرة، فحاول أن يصنع من محض خياله صورة يرغب أن تكون هي الحقيقة، ولكن لم يستطع لسبب وجيه – انفعالات الطبيعة خلف الزجاج، كانت أقوى على إثارة نوازع الدهشة فيه، وكأنه أمام رقصة شرقية تجيدها امرأة رشيقة المحيا.. وذلك عندما زادت الغيوم من هز خصرها واشتد برق عينيها يخطف أنظار من كان يعيش في تلك اللحظات.

زجاج النافذة أيضاً يعطي رسائلاً حية إلى داخل المقهى المعبق بدخان السجائر ورائحة الأفواه التي لاذت بالصمت كالعادة.. إلا بعض أنغام القيثارة الفيروزية وهي تنتحب بأغنية (على جسر اللوزية.. هب الغرب وطاب النوم .. وأخذتني الغفوية..).

أعاد النظر إلى شجرة اللجوء المصرة على اللون الأخضر على الرغم من عواتي فصل الشتاء السوري.. فكانت متبللة جداً.. وتستحم كامرأة تشعر بلذة الماء وهو يسبر كل خلاياها العارية حتى من بقايا الملابس التي كانت تُلّون أهم ما تبقى من الحقيقة المغرية في الشهوة حتى الثمالة.ا

خاطب نفسه متسائلاً – لماذا لا أستطيع أن أجعل من حديقتي متنزهاً لروحي..؟؟ ولمَّ هذا الخيال الذي أُمَرِّنه في كل يوم على الأشياء التي أتذوقها ويصبح عاجزاً الآن عن فعل أي رغبة أشتاق لصنعها!!!

أجابته المرأة العارية خضراء الخصوبة بصمت لاهب تذوقته أطراف الخلايا في محيط الرؤيا.. فمال خجلاً باتجاه أي شيء داخل قوقعة أدمية تعج بأصوات غير واضحة الماهية، أو السبب بينما تعلو رقصة القيثارة الفيروزية كي تضفي على الكل رداء محبة دون أن تميز بينه وبين حشد صغير من الأجساد التي جمعت بين الطالبات والطلبة.

حديقة ملك له يتصرف بها كما يريد، يزرع على أطرافها أحياناً ورد القرنفل والياسمين.. أو الجوري.. ثم يغير رأيه فيزرع شجيرات دائمة الخضرة.. لا بل أحياناً يعمل في وسطها بحرة ماء معطرة برائحة الخلايا التي يتمنى استنشاقها حتى ولو .. هي نتتةً.

في بعض الوقت يملُّ من رؤية الحديقة، فيعمل حروباً تدمر بعض المدن التي يريد تدميرها.. ويخلق الكثير من المشاكل الدولية، ويعمل في نهاية الأمر على حلّها بسهولة... وقبل أن يعيد بناء معمورته ثانية يقتل من يكنّ لهم الكره .. لا بل يزهق أرواحهم ويستبيح أية حرمة لديهم.. وفي النهاية.. يعود الشرود والتحليق ثانية إلى فلك الجمجمة، ليعود إلى رسمها بحدود جديدة وعلى هواه.

طبعاً تلك المشاهد الأخاذة من خلف زجاج النافذة تعيد إصرارها على رؤية عريسها الذي لازال يغتسل بماء الوجه الصريح للحياة.. فتلتمع عيناه برعشة الحب مع عطاء السماء، ليعود ثانية فلا يجد بالقرب منه سوى هيولى تتحرك.

نعم .. والآن يجب أو قرر أن يستيقظ من أحلام الشمس، فالوقت المقرر، وعزف القيثارة الفيروزية شارفا على الانتهاء.

لملم عظامه الطرية بروح الإقبال نحو ما هو حقيقة.. أو نحو التوجه إلى صنع الحديقة الخاصة في عالم ملموس.

وما أن استفاقت الأطراف الجانبية نحو النهوض.. حتى عاد لضمها متكوراً في مقعد قليل الثراء.. حيث اجتاحت مملكته حدائق أخرى، تسمّر فيها يحاول أن يعرف غناها وتفاصيل رؤيتها.

فتاة كانت إلى جانبه في هذا المقهى تجلس منفردة.. أيضاً تملأ حديقتها بالقرنفل.. وفي بعض مداخلها كانت قد زرعت بعض الزنبق الأحمر والأصفر.. أما في وسطها يبدو أنها زرعت عدة من أشجار الكينا العملاقة كمأوى للطيور الهاربة.

تبادل مع هذه الحديقة صور من أجل تحسين الحدائق .. أومن أجل صنع الشذى المناسب لرائحة الحديقتين.. والتعاون.. فلاذت هي محاولة الفرار من سحر الجرأة التي كان يتصنع بها من أجل ذلك..

حيث تمايلت أطرافها تهم إلى حيث لا تعرف معبراً له طريق ما، بينما حديقة عينيها حاولت تلمّس الأسئلة في اللون الأصفر الوردي البادي كقرص يشبه الشمس عند الاحتضار، حيث كان يرقد هو بترفق في محجر عينيها، ويجمع صفحات الذاكرة ليعطي.. لا بل أعطى إجابة مختصرة عندما حملت عكازها وهي تسير بتثاقل وئيد مجبرة عليه، تزحف بها حيثما هي تشاء صنعها في أي مكان تريد.. فأرض الله والسماء .. والخيال يتسع لكل حدائق الدنيا.

تخاطر مع قرص الشمس الأرجواني المائل للصفرة الذي يرقد في خلايا ناعمة لطيفة وعذبة، اللقاء خلف بعض الغيوم.. كالظمأ عندما ابتلَّ طرفه برشفة ماء.. فأقبل يُسّرع مجهود القوى إلى لهفة الرقص سوياً، وفي حديقة واحدة يعرّشُها اللون الأزرق برائحة الشمس عند الولادة.

بغداد قبيل عيد

رأس السنة

٢٠٠٢

تعريف بالكاتب:

- سهيل محمود عمورة، مواليد دمشق ١٩٥٧ لأب من مواليد قرية الطيرة في حيفا فلسطين عام ١٩٣٢ والذي لازال حياً.

مؤلفاته:

رواية مرصد الوعي (**رثاء إلى مخيم جنين**)

مجموعة من القصص القصيرة والمقالات الأدبية والسياسية نشرت في بعض المجلات والصحف.